تفسير
سورة الفتح

وبيان ما اتصل بها من الفتوح الإسلامية والسيرة النبوية

بقلم الأستاذ

عبد الله عفيفي بك

إمام حضرة صاحب الجلالة الملك

تفسير
سورة الفتح

وبيان ما اتصل بها من الفتوح الإسلامية والسيرة النبوية

بقلم الأستاذ

عبد الله عفيفي بك

إمام حضرة صاحب الجلالة الملك

هدية وتذكار

لما أتم الله على الملك الصالح فاروق المعظم نعمة الزواج الكريم جهدت أن أختار له تذكاراً يحمل طابع ذلك العهد السعيد ويسجل طالعه، فرأيت أن كل ما فكرت فيه لا يوفيه، حتى إذا كانت ليلة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٥٦ قرأت ما وفقني الله إليه من القرآن الكريم ثم أغفيت في السحر فسمعت هاتفاً يهتف بي "أن قدم للملك فاروق سورة الفتح"، فانتبهت وأنا أسر الناس بما رأيت وسمعت، ثم استخرت الله فهيأت لتفسير هذه السورة وتبيين ما اتصل بها من الفتوح الإسلامية والسيرة النبوية - وهي ولا شك أصدق تذكار لأسعد يوم في تاريخ مصر الحديث

عبد الله عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، ونستهديك ونستغفرك ، ونتوسل إليك بكتابك الحكيم ، ونبيك الكريم ، أن توفق حامل أمانتك ، وحامي كنانتك ، "فاروقا الأول" أعزه الله إلى خير ما ترضاه ويرضاه ، في دينه ودنياه ، اللهم هب له من "فريدته" المفداة ، وذريته المجتباة ، عونا صالحا ، وعينا قريرة ، واجعله للمتقين إماما فانك سبحانك ولي النعمة وهادي الطريق .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

أخرج البخارى والترمذى وأحمد والنسائى وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر[١] فسألته عن شىء ثلاث مرات ، فلم يرد علىّ ، فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فىّ القرآن ، فما نشبت إذ سمعت صارخا يصرخ بى ! فوجفت[٢] وأنا أظن أنه أنزل فىّ شىء ، فقال النبى ﷺ : لقد أنزلت علىّ الليلةَ سورة أحب إلىّ من الدنيا وما فيها ! (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ،ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر)

وفى حديث ابن سعد عن مجمع بن جارية : لما نزل جبريل بسورة الفتح قال : تهنيك يارسول الله ، فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون . .

بهذا التنويه العظيم نزلت سورة الفتح ، وإنها لفتح مبين فى مقاصد الإسلام ؛ وفى سياسة الإسلام ، وفى أدب الإسلام ، وفى تاريخ الإسلام . وستعلم أن هذا الفتح المبين الذى استحق به الرسول الكريم أن يغفر الله له ماتقدم

---

(١) كان ذلك حين انصرف الرسول من صلح الحديبية عائدا إلى المدينة فى أخريات ذى القعدة سنة ست من الهجرة

(٢) وجف وجيفا ووجوفا : خاف واضطرب

من ذنبه وما تأخر، وأن يتم نعمته عليه ، وأن يهديه صراطاً مستقيما ، وأن ينصره نصراً عزيزا ، ثم استحق به المؤمنون أن يدخلهم الله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأن يكفر عنهم سيئاتهم ، أقول : ستعلم أن هـذا الفتح المبين لم يجرّد فيه سيف، ولم يسل فيه دم ؛ ولم تروّع فيه نفس ، ولم يُهتك فيه ستر ، بل كانت جنوده الظافرة ، وأسلحته المنتقاة ، هى الحلم ،والصبر ، والأناة، ورعاية الرحم ، وإرصاد النفس والحياة لله ؛ وإعدادها فى سبيل الله .

هذه هى الوسائل التى بذلها الرسول الكريم ، وشايعه وبايعه عليها صحابته الأبطال الأخيار ، فكان من ثمراتها ذلك الفتح المبين الذى خفقت به راية الإسلام على الأنام .

وقبل أن نأخذ فى تفسير هذه السورة العظمى نتحدث عن ذلك الفتح الذى نزلت واصفة له ومنوهة به وهو صلح الحديبية . ثم نذكر ما أعقبه من الفتوح وما أثمره من النعم . والله المسئول أن ينير لنا المحجة ويهدينا سواء السبيل .

حديث الحديبية

رؤيا الرسول

رأى النبي ﷺ في منامه ملكا هبط عليه فبشره بأنه سيدخل البيت الحرام في جماعة المسلمين آمنين مطمئنين ، فلما أصبح قص رؤياه على أصحابه واستنفرهم إلى مكة ففرحوا واستبشروا ولم يخامرهم شك في أن تحقيق الرؤيا سيكون في عامهم الذي هم فيه، وكان ذلك حين أهل ذو القعدة من السنة الهجرية السادسة ، فتأهب المسلمون ، وتخاذل المنافقون، وثقل من حول المدينة من الأعراب ، فلم يخف للدعوة النبوية منهم إلا الأقلون ؛ وخرج الرسول في زهاء ألف وخمسمائة من صحابته يسوقون أمامهم الهدى [1] ويثنون على الله بالتكبير .

قريش الموتورة

وكانت قريش قد أكلتها المحن ، وأوهنتها الحروب ، ولكنهم ما كادوا يعلمون بمسير الرسول في أصحابه إلى مكة حتى جمعوا بقاياهم، واستثاروا أحقادهم، وعزموا أن يقفوا للنبي ﷺ فلا يدعونه يدخل مكة وفيهم حياة .

الرحمة والعزة

وبينما الرسول ﷺ في طريقه لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال له : يا رسول الله : هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل [2] قد لبسوا

---

(١) الهدى ما أهدى إلى مكة من الأنعام للنحر (٢) العوذ الحديثات النتاج ، والمطافيل جمع مطفل ذوات الطفل من الانس والوحش

جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طُوًى[١] يحلفون بالله لاتدخلها أبدا . فقال رسول الله يا ويح قريش قد أكلتهم الحروب ! ماذا عليهم لو خلوا بينى و بين سائر العرب ! فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، و إن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، و إن لم يفعلوا قاتلوا و بهم قوة ، فماتظن قريش ! فوالله لا أزال أجاهدهم على الدين الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[٢] » ثم قال : مَن رجلٌ يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال رجل أنا يارسول الله ، فسار بالركب فى طريق وعرٍ قاسٍ كثير الصّلاب والصِّعاب ، عانى المسلمون منه عنتا شديداً ، ثم أفضوا إلى مهبط الحديبية أسفل مكة . و بينما الركب فى طريقه إلى مكة بركت ناقة رسول الله ﷺ فقال الناس خَلأَت[٣] ناقة رسول الله! فقال ﷺ ماخلأت وما هو لها بخُلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لاتدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»

آية الرضا

ثم أقام ﷺ بأصحابه حيث بركت ناقته بالحديبية، و لم يكن هناك ماء يستقى منه الركب إلا أثر ماء نضب من قَليب[٤] مهجور ، فأعطى الرسول الكريم أحد صحابته سهما من سهامه وأمره أن يغرزه حيث نضب الماء فما لبث أن فاض قويا متدفعاً بإذن الله حتى وسع الناسَ والدوابّ والأنعام .

---

(١) ذو طوى موطن على مقربة من مكة (٢) السالفة موضع النحر من العنق ومعنى تنفرد تنفصل (٣) خلأت الناقة حزنت و بركت (٤) القليب البئر القديمة

حديث الصلح

وجاءت رسل قريش إلى رسول الله يسألونه عن مقدَمه ، فقال ﷺ إنا لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نَهكتهم الحرب وأضرت بهم ،فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس،فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[1] وإن هم أبوا،فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره » . وكان حَسْبُ هذا القول الكريم الحكيم أن يملك قلوب قريش بأسرها ، ولكن سفهاءهم قابلوه بنخوة جاهلية فلم يقدروه قدره بل أمعنوا فى غَوايتهم فقتلوا أحد أصحاب رسول الله ، ثم أرسلوا أربعين من شُذَّاذهم فرموا المسلمين بالنبل والحجارة ! وقد اعتقل المسلمون كثيراً من هؤلاء وساقوهم إلى النبى ﷺ فعفا عنهم. وبعث عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان إلى مكة ليلقى أشرافها ويبلغهم رسالة الرسول فقصد عظماء قريش فبلغهم عن النبى ما أرسله به . ولما فرغ من أمره أفسحوا له الطريق ليطوف بالبيت فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها وأرجف الناس أن عثمان قد مات . . . !

بيعة الفداء

هنا لك رأى النبى ﷺ أن الأمر خرج عن طوق الصفح والحلم، وأن أشراف قريش فيما تحدث الناس قد اقترفوا أمراً ينكره العرب ويأباه الشرف ،فأذّن فى الناس : هلموا إلى البيعة ! ووقف ﷺ فى ظل شجرة من شجر السمُر وأقبل عليه أصحابه متدافعين يبايعونه على الثبات حتى الموت . وكانت يد الله فوق أيديهم ،

---

(١) جموا : استراحوا وحفظوا قواهم

ودعيت هذه البيعة بيعة الرضوان وسميت هذه الشجرة شجرة الرضوان ، لِما شملها وشمل مَن تَحتَها من رضوان الله . و إذن فلم يكن الارجاف بعثمان إلا امتحانا امتحن الله به أصحاب رسول الله ، فكانوا كما أحب الله و رسوله من الاعتصام بالله ، والفداء فى سبيل الله .

قريش تسأل الصلح

ولما رأت قريش وميض العزم الصادق من النبى ﷺ وصحابته أرسلت سهيل ابن عمرو ، وكان من أسمح قريش خلقا وألينهم جانبا، وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامّه هذا ، فوالله لاتحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً ، فأقبل سهيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل إلى موقفه من رسول الله خطب فى الصلح ، ورد عليه الرسول ، واتفقا على أن يقوم بين الفريقين صلح أساسه : تحاجزهما عن الحرب عشر سنين ، وعودة المسلمين دون زيارة البيت الحرام هذا العام، و إخلاء البيت للنبى وأصحابه ثلاثة أيام فى العام القادم، وأنّ من جاء الرسول من أهل مكة بغير إذن وليّه رده الرسول فلا يقبله ، ومن جاء قريشاً من فريق الرسول لا يردونه إليه بل يقبلونه ، ومن أراد محالفة رسول الله ﷺ ، أو من أراد محالفة قريش فله الخيار » . و بذلك كتب عهد الصلح ، وكان كاتبه على بن أبى طالب عليه السلام ، ولمّا كتب فى ديباجته — بسم الله الرحمن الرحيم : قال سهيل هذا شىء لانعرفه . اكتب : باسمك اللهم ! فقال رسول ﷺ : اكتب كما قال ، ثم لما كتب : هذا ماتقاضى عليه محمد رسول الله ، قال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله مامنعناك ، ولكن أنت محمد بن عبد الله ، قال : أنا رسول الله ، وأنا

محمد بن عبد الله ، ثم قال ﷺ امح « رسول الله » قال علىّ : لا والله لا أمحاك أبدا . فأخذ رسول الله ﷺ الصحيفة ، فمحا وصفه الشريف .

المسلمون يفتتنون

ونزل بالمسلمين من أمر هذا الصلح شيء عظيم. فهم يرون أنهم وهم على ماهم عليه من كثرة العدد وقوة الإيمان يُقدمون لقريش يد الضعيف الراضى باليسير ، وهم كانوا يؤمنون بأنهم سيدخلون مكة كما رأى الرسول آمنين ، فإذاهم يُرَدون عنها وهى مفتحة الأبواب، وما ظنك بموقف تُزلزَل فيه قدما البطل المؤمن عمر بن الخطاب فيروح يسأل صاحبه أبا بكر فى حيرة واضطراب :ألسنا بالمسلمين ! قال: بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ! قال : بلى . قال : فعلام نُعطَى الدنيَّةَ فى ديننا ! قال أبو بكر : ياعمر الزم غَرزه [1] فإنى أشهد أنه رسول الله . قال : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم يتقدم فيسأل الرسول : ألستَ برسول الله ! قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين : قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين : قال بلى ، قال فعلام نُعطَى الدنيـة فى ديننا ! قال أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

أم المؤمنين

وما ظنك بالمسلمين وهم أهل الفداء وفيهم المهاجرون والأنصار وأهل بدر — ماظنك بهؤلاء حين يأمرهم الرسول أن يحلقوا رءوسهم وينحروا ذبائحهم فلا يسمع لأمره أحد ! فيدخل على زوجه الكريمة أم سَلَمة وقد أخذ الغضب منه ﷺ كل مأخذ وهو يقول : هلك المسلمون . ! أمرتهُم أن يحلقوا وأن

(١) الغرز : الركاب أو الظل

ينحروا فلم يفعلوا ! » فقالت يارسول الله إنهم راموا أمرا فى الله فلم ينالوه ، فكان حزنهم لما فاتهم من أمر الله ، فإن أردت أن تحملهم على طاعة الله و رسوله فاخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، و بينما هم عائدون سمع الرسول رجلا من المسلمين يقول : لقد رجعنا و لم نصنع شيئاً ! و لم يُفتح لنا بشىء ! . فقال ﷺ بل فتحتم أعظم الفتح

فجر السلام

ولقد صدق الله ورسوله فقد فتح الله على نبيه ودينه بهذه السياسة العظمى أعظم الفتح وأعزه ، فدانت لهم بهذه الحكمة السامية قلوب العرب حتى دخلوا فى دين الله أفواجا ، وحتى كان الذين استجابوا لله ولرسوله بعد هذا الفتح أكثر كثيراً ممن استجابوا من يوم البعثة النبوية ، وقد تبين أن ما كان يظنه المسلمون هواناً لهم من شروط الصلح إنما كان لهم قوة وعزة وتثبيتاً وتأييداً ، فان اللاجئين الذين قصدوا النبى من مكة فردهم ، جمع بعضهم بعضاً وألّفوا من أنفسهم كتيبة قوية مستبسلة وقفت بساحل البحر على ممر قريش من الحجاز إلى الشام فكلما مرت قافلة قتلوا رجالها ، وحازوا بضاعتها ؛ حتى أرسلت قريش إلى الرسول تناشده الرحم ، وتتوسل إليه أن يقبل اللاجئين إليه وهو فى حل مما جاء فى شأنهم فى عقد الصلح ، وناشدوه أن يدعو الكتيبة الراصدة لقوافلهم ، فدعاهم ﷺ فآووا إليه ، ثم علم المسلمون أن الرؤيا الصادقة لاموعد لتأويلها إلا حين يشاء الله ، كما أن الدعوة الصالحة لاموعد لإجابتها إلا حين يشاء الله ، وأن أولى بالمؤمن أن

يُسْلم وجهه لله ورسوله : لاتوهنه الشدة ؛ ولا يذهب بلبه المكروه ، ولا يصرفه ظاهر الأمر عن حقيقته ، ولا يؤيسه التواء أول الأمر عن الرجاء فى استقامة آخره

على أن هذه الهدنة التى مدها عقد الصلح عشر سنين ، لم تدم عليها قريش إلا عاما وبعض عام ، ثم نقضت عهدها وخفرت ذمتها فأعانت بنى بكر وهم حلفاؤها على خزاعة وهم حلفاء الرسول ، فكان من أمر ذلك فتح مكة

وبينما النبى ﷺ فى عودته من الحديبية أنزل الله عليه سورة الفتح ، وبها جمع الله لرسوله المختار وصحابته الأطهار أشرف النعم ، وفضله على من سبق من الأنبياء وفضلهم على من سلف من الأمم .

وهناك فتح آخر يتصل بهذا الفتح المبين بسبب مكين ، بل هو ثمرة من ثمراته ، ومثوبة من مثوباته ؛ وهو الذى أشارت إليه السورة الكريمة بقول الله تباركت آياته : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما) وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر .

فتح خيبر

الكيد والحسد

كان أولى باليهود أن يكونوا أسبق الناس إلى نصرة رسول الله ، وأسرعهم إلى إذاعة دين الله ، لأنهم أهل العلم ، وأهل الكتاب ، وأعرف الناس بميثاق النبيين : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم

إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) وهم كانوا يعلمون صفة النبي و وقته ومكانه وكل مايحيط به ، ولـكن أدركهم الحسد وغلبت عليهم الشقوة فناصبوا النبي العداء ؛ وسعوا بينه و بين سائر العرب بالشقاق ، واتهموه عندهم بالـكذب والبهتان بغياً من عند أنفسهم من بعـد ماتبين لهم الحق ، وتوسلوا بما كان بينهم و بين قريش من الصلات التجارية والمـالية فاغزوهم به وسلطوهم عليه ، ثم لمـا هاجر إلى المدينة حالفوا عليه المنافقين ، ثم كادوا له عند أحزاب العرب حتى جمعوهم على حربه ، فلما هزم الله الأحزاب لم يكن له بد من إجلاء اليهود إلى أعماق الجزيرة فأجلاهم عنوة من حول المدينة إلى خيبر .

ولـكنهم وهم فى خيبر مازالوا يفسدون مابين النبي و بين العرب ، فسار إليهم ومعه أهل بيعة الرضوان جميعاً لم يتخلف منهم إلا جابر بن عبدالله ، وانضم إليهم فريق من غيرهم ، وكان مسيرهم فى صفر من السنة السابعة ، أى بعد انصرافهم من الحديبية بشهرين و بضـعة أيام ، وكانت حصون خيبر أقوى حصون العرب وأحفلها بالسلاح والمـال والطعام ، وقد ابتناها اليهود ليعتصموا بها من العرب جميعاً وكان المسلمون فى سيرهم يكبرون الله بصوت يبعثه الإيمان الـكامل فتهتز من روعته الراسيات ، و بدأ رسول الله بالأموال السائمة يحتازها مالا مالا ، ثم ثنى بالحصون يقتحمها حصناً حصناً ، حتى انتهى إلى حصن السُّلالم وهو أشدها بأساً وأكثرها عتاداً وأمنعها على الفاتحين ، فلقى المسلمون منه عنتاً شديداً وحاصروه بضع عشرة ليلة ، وكلما ذهبت كتيبة لتقتحمه ردت عنه مقهورة .

حبيب الله وحبيب رسوله

ولمـا عز الحصن على الـكتائب المهاجمة قال رسول الله ﷺ : لأعطين اللواء غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فما من أحد من أقطاب المسلمين

وأبطالهم إلا تمنى الأمارة ليلتئذ ، فلما أصبح النبي دعا علياً عليه السلام وكان أرمد ففتح ﷺ في عينه فجُليت، ثم أعطاه اللواء ونهض معه من الناس من نهض فلما بلغ الحصن خرج له مرحب قائد اليهود وكبير أبطالهم وعلى رأسه خوذة من الرخام وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحبُ شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب

فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة أكيلكم بالسيف كيل السندرة (١)
ليث بغابات شديد قسورة

فضربه مرحب ضربة اتقاها عَلِيّ بترسه فانكسر، فلما وقف عَلِيٌّ ولا ترس له نظر فرأى بابا مخلوعا من الحديد فأخذه فتترس به ، ثم ضرب بالسيف مرحباً فوق هامته ضربة اخترقت بيضة الرخام وشقت هامته حتى عضت بفكيه ، وكبّر فكبر المسلمون، ثم حملوا على الحصن واليهود يلقون عليهم من فوقه الصخر والحديد وهم لا يزدادون إلا قوة واستبسالا ، حتى فتحه الله عليهم ، وبذلك دانت خيبر لرسول الله ﷺ .

الكَرَمُ والصَّفْح

وأرادت زينب بنت الحارث اليهودية أن تثأر لنفسها ولقومها من رسول الله فزعمت نفسها مسلمة ثم أعدت له شاة مشوية وحقنتها بالسم ، وسألت: أى أعضاء

(١) السندرة الكيل باغتراف

الشاة أحب إليه؟ فقيل لها الذراع ، فأكثرت من السم فيه . فلما وضعتها بين يدى الرسول تناول الذراع فلاك منه مضغة فلم يسغها ، فلفظها، ثم قال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم، ثم دعا بزينب فاعترفت،فقال : ماحملك على ذلك ؟ قالت : بلغتَ من قومى مالم يَخف عليك ، فقلت : إن كان نبياً فسيُخبَر، وإن كان ملِكا استرحت منه ، فتجاوز عنها عليه الصلاة والسلام

حكمة الله العالية

وكان لابد من القضاء على اليهود قبل أن يفد العرب من أقطار الجزيرة مسلمين ، حسما لكيدهم ، وكفًّا لمكرهم ، ولينفق النبى ﷺ من أموالهم ومطاعمهم على قصّاد المدينة وهم ضيوف الله و رسوله ، وليزود الكتائب الإسلامية بالعتاد والسلاح لفتح مكة ، وهكذا يرفع الله المسلمين درجة درجة حتى يصلوا إلى الغاية العليا من عزة الدنيا وسعادة الآخرة .

هذا هو الفتح القريب الذى أثاب الله به المسلمين ، و بشرهم به قبل وقوعه وجعله من دون فتح مكة خيراً عاجلا ، وقوة عتيدة . وننتقل من بعده إلى فتح مكة ، وهو المرحلة الأخيرة من الفتح العظيم .

فتح مكة

قريش تنقض العهد

لقد علمتَ أن مما نص عليه صلح الحديبية : أن من شاء دخل فى حلف الرسول ومن شاء دخل فى حلف قريش ، وللمحالف حق الحليف من العهد والذمة والأمن والسلام . وقد حدث أن نشب الشر بين بنى بكر بن عبد مناة ، وهم حلفاء قريش ، و بين خزاعة وهم حلفاء النبى ، فأعانت قريش بكراً بالسلاح ، و بعض الرجال ، وأصابوا منهم من أصابوا ؛ فانطلق عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله . فأنشده وهو جالس فى المسجد بين الناس

لاهُمَّ (١) إنى ناشد محمداً ... حِلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالداً كنا وكنت ولداً ... ثمت اسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً عَتَداً ... وادع عباد الله يأتوا مددا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وهم أذل وأقل عدداً ... هم بيتونا بالوتير هجداً
فقتَّلونا ركعاً وسجداً

فقال رسول الله : قد نُصرت يا عمرو بن سالم ، وبذلك انتكث صلح الحديبية ، وأباح الله رسوله دخول مكة أنى شاء ، ونظر الرسول إلى من حوله فقال : كأنكم بأبى سفيان ، قد جاء ليشدد العقد ، و يزيد فى المدة

(١) لاهم اختصار اللهم

قريش بين الخوف والندم

ولقد صدق الله رسوله ، فما لبثت قريش أن استشعرت الخوف والندم ، فأرسلت أبا سفيان إلى رسول الله ، ليشدد العقد ويزيد فى المدة ، فلما بلغ المدينة ذهب إلى ابنته أم حبيبة ، زوج رسول الله ، فلما ذهب يجلس على فراش رسول الله ، طوته عنه . فقال : يا بنية ، والله ما أدرى : أرغبتِ بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ! قال والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر ! ثم خرج حتى أتي رسول الله فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبى بكر ليكلم رسول الله فأبى ، ثم أتى عمر لمثل ما أتى به أبا بكر فأبى ، فدخل على عَلِي بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله وأمامها الحسن بن على غلام يدب بين يديها ، فقال يا على إنك أمَسُّ القوم بى رحماً وأقربهم منى قرابة وقد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لنا إلى رسول الله . قال : ويحك يا أبا سفيان . والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة . فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنيي ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد ، ثم عاد أبو سفيان وما صنع شيئاً ذا أثر .

النبى يأهب

وأمر رسول الله الناس أن يتجهزوا للحرب ، وأنبأهم أنه سائر إلى مكة ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها فى بلادها ، وما أراد

الرسول من المفاجأة إلا أن تسكن قريش فى ديارها فلا تعرض نفسها للفناء و إلا فهم أعجز من أن يصمدوا للقوة الزاحفة أو يقفوا لها بطريق .

وأراد حاطب بن بَلْتعة أن يتخذ إلى قريش يداً يحفظ بها أهله وماله فى مكة فكتب إليهم كتابا يخبرهم فيه بما عزم عليه الرسول ، وأعطاه امرأة من مزينة وجعل لها جعلا على أن تضعه فى غدائر شعرها ففعلت، واتخذت طريقها إلى مكة. وجاء الخبر إلى النبى ﷺ من السماء فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ماقد أجمعنا له فى أمرهم، فخرجا حتى أدركاها، فالتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها على: إنى أحلف ما كذب رسول الله ، ولتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه أخرجت الكتاب . ولما عاد الرفيقان بالكتاب إلى رسول الله دعا حاطبا ، فقال : يا حاطب ! ماحملك على هذا ؟ فقال : يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله و رسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم أهل و ولد ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ! فقال رسول الله وما يدريك ياعمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر . وكان حاطب منهم ـ فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » فأنزل الله فى شأنه قوله تباركت آياته : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) إلى قوله : (ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير)

وسار رسول الله فى عشرة آلاف رجل مستكملى الأهبة والسلاح ، وهو أعظم جيش إسلامى فى عهد النبوة ، وكان لكل كتيبة شعار خاص ، واسم خاص ، وزى خاص ، وهذا أسلوب الفداء عند العرب لكى تدل كل قبيلة على مقدار فدائها و بلائها فى سبيل الله .

بين رسول الله وأبي سفيان

لم يلق النبي ﷺ عناء من أحد مثل مالقى من أبي سفيان . فهو كبير الأسرة الأموية التي كانت تنازع الأسرة الهاشمية أعِنَّة السيادة في قريش ، وقد رأى أبو سفيان أن ظهور أمر النبي ﷺ يكفل لبني هاشم سيادة الدهر وعز الأبد ، ولا يدع لأموى مجالا في الفخر مع هاشمى ، فناصب النبيَّ ﷺ منذ مشرق عهد النبوة أعنف العداء ، وسلط عليه أفدح البلاء ، وكان من أفظع مواقفه من رسول الله تعاونه هو وامرأته هند على اغتيال سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله، فلما سقط صريعا نزعت المرأة كبد الشهيد لتأكلها بينما أخذ أبو سفيان يمزق جسده و وجهه بسن رمحه...! فما ظنك بهذا الرجل وهو يعلم أن رسول الله قادم إليه بجيش لاقبل له ولا لقومه به ! لقد خرج إلى الصحراء في نفر من أصحابه يتحسسون أخبار رسول الله، فبينا هو سادر في ظلمة الليل ، وفي ظلمة الحيرة مر به العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، فعرفه من صوته، فناداه العباس يا أبا حنظلة ! فأجابه لبيك فداك أبي وأمي، فما وراءك ؟ قال هذا رسول الله قد دلف إليكم بعشرة آلاف من المسلمين لاقبل لكم بها ، فقال أبو سفيان فما تأمرني ؟ قال تركب عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ! فردفه أبو سفيان وسار به بين نيران الكتائب الاسلامية حتى بلغ به مضرب الرسول ، فدخل عليه، وهو معه، فاستأمن له . فقال رسول الله اذهب فقد آمناه حتى تغدو به على في الغداة ، فرجع به إلى منزله . فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ! فقال : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً . قال ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك

أن تعلم أنى رسول الله ! فقال : بأبى أنت وأمي ! ماأحلمك وأوصلك وأكرمك ، أما هذه ففى النفس منها شيء ، فقال له العباس . ويلك ! تشهَّدْ شهادة الحق قبل والله يضرب عنقك ، فتشهد أبو سفيان ، فلما تشهدقال الرسول لعمه : انصرف به فكن معه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله ، فقال العباس يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون فى قومه ، فقال نعم « مَن دخل دار أبا سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » أفرأيت إذن كيف سما رسول الله بفطرته وخلقه ، حتى فات كل غاية ، وجاوز كل مرتقى ! هذا هو الرجل الذى أجلب عليه بكل صنوف الأذى ثمانية عشر عاما لاهوادة فيها ولا رفق ولا كرامة . . . هـذا هو الرجل الذى صب على أصحاب النبى كل ألوان العـــذاب من قتل وتنكيل وتشريد . هـذا هو الرجل الذى سلط على عم النبى من اغتاله ، ثم أحال على جثمانه فمزقه ومثل به وترك امرأته تنتزع كبده لتأكلها فلما لم تسغها ألقت بها فى التراب . . هذا الرجل وذلك بعض شأنه ، يقف أمام محمد ومحمد فى ذروة القوة والصولة والعزة والسلطان ، ثم يتاريه فى رسالته فلا يقتله ، ولا يردعه ، ولا يعيره ، ولا يذكره ببعض مأسلف منه ، ولا يتوعده بالثأر من بيته ، بل يتفضل عليه فيشرفه ويجعل بيته مثابة آمنة لكل لاجيء . . ! فأى بيان يصف هذه النفس الربانية التى تركت كل مشاعرها ومقاصدها وآلامها وآمالها لله ، لاتسأل عما يمسها من سوء أو ينالها من فجيعة مادام ذلك لله وفى الله .

وبعد فقد انطلق الصاحبان « العباس وأبوسفيان » حتى وقفا عند خطم الجبل ، فكلما مرت بهما قبيلة قال أبوسفيان: مالى ولهذه ؟ حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار فى الحديد لايُرى منهم إلا الحَدَق ، فقال

أبو سفيان : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ قال هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، فقال ياأباالفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيما ! قال ويحك ! إنها النبوة ! الْحَق الآن بقومك فحذرهم ! فخرج سريعاً حتى أتى مكة فصرخ فى المسجد : يامعشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبل لكم به ، قالوا فمه ؟ فقال : من دخل دارى فهو آمن ؛ فقالوا ويحك ، وما تغنى عنا دارك ؟ فقال ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

دخول مكة

ورغم هذا الأمان الشامل خرج أناس من فتيان قريش وحلفائهم ليقاتلوا ، وقسم رسول الله ﷺ كتائبه قسمين : قسما يقوده خالد بن الوليد ، وآخر يقوده الزبير بن العوام ، وأمر أولها أن يدخل مكة من أسفلها ، وأن يدخلها الثانى من أعلاها ، وقال لهما لاتقاتلا إلا من قاتلكما ، وعلم رسول الله ﷺ أن سعد بن عبادة وهو فى طليعة جيش الزبير يحمل رايته ويقول : اليومَ يومُ الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ! فقال لعلى أدرك سعداً وخذ الراية منه وأخره ، ولم يَلق جيش الزبير قتالا ، أما خالد فقد لقى شيئا من المقاومة لم يلبث أن أجلاها ، وهكذا دخل المسلمون مكة آمنين ، ودخلها رسول الله ﷺ حانِىَ الرأس تواضعاً لله حتى كاد جبينه الشريف يمس رحل ناقته .

السياسة الاسلامية

وأقبل عليه الناس من كل فج يبايعونه بالاسلام ، وألقى الأمان على الناس إلا عشرة منهم : ستة رجال وأربع نساء رفع عنهم الأمان ، وأوصى أن يُقتلوا ولو تمسحوا بأستار الكعبة ، لأنهم أحدثوا أحداثاً فى الإسلام لاتنالها التوبة ، ومع ذلك فقد نجا بإسلامه من هؤلاء من سبقت له رحمة الله ، ومن اعتصم باسلامه

قبل أن يدركه الموت ، ثم جمع رسول الله ﷺ قريشاً وخطبهم فقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال[1] يُدَّعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سَدانة[2] البيت وسقاية الحج ، يامعشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، ثم تلا قول الله تبارك وتعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

الصفح والمغفرة

ثم تابع الرسول الكريم خطبته الشريفة فقال : يا معشر قريش ! و يا أهل مكة ! ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء . . ! » وليس فى هؤلاء الطُّلقَاء رجل إلا وقد سقى الرسول ألواناً من العذاب . وهؤلاء لم يقف ﷺ منهم موقف العفو والصفو وحسب . بل لقد آخاهم وخلطهم بنفسه وأجزل لهم العطاء ، و بهذه السياسة العليا كان رسول الله أحب إليهم من أرواحهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ثم حطم رسول الله الأصنام المحيطة بالبيت . وكانت ثلثمائة وستين صنما .

وكان شعار الرسول وهو يحطم الاصنام قول الله تبارك آيته « و قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

---

(١) بهذا المبدأ العظيم طرحت مبادىء السيادة ومآثر الأشراف التى كان يباهى بها الناس بعضهم بعضاً ، وتركت الدماء التى أريقت ، فلا يؤخذ دم فى الاسلام بدم قبل الاسلام (٢) سدانة الكعبة خدمتها

وبعد خمسة عشر يوما أجمع ﷺ على العودة إلى المدينة ولم يشغله وطنه الذى غُرِّب عنه ثمانى سنين عن المضى فى سبيل الله .

وكان فتح مكة فى أخريات رمضان سنة ثمان من الهجرة النبوية .

يوم حُنين

الاعجاب بالكثرة

لم يغادر النبى ﷺ مكة حتى انضم إلى جيشه ألفان من أهلها فازداد بهم الجيش إلى اثنى عشر ألفا ، وقد أخذ المسلمين الزهوُ بكثرتهم، فربما نظر بعضهم إلى بعض فقالوا : لن نُغلب بعد اليوم من قِلّة ! وكانت هوازن ومن انضم إليها من قبائل العرب قد أجمعوا أمرهم على أن يقاتلوا رسول الله،فبثوا كتائبهم فى الشعاب والمضايق والأحناء المحيطة بوادى حنين .

المفاجأة والهجوم

وقد ترامى إلى رسول الله إجماع هوازن ومن معها على حربه ، ولم يعلم أنهم سيأخذونه مباغتة ويَلقونه مفاجأة ، وبينما الجيش الإسلامى فى طريقه بوادى حنين انفرجت الجبال والشعاب والمضايق عن كتائب المشركين ، وأخذت جيشَ النبى من كل جانب ! فارتاع المسلمون وانهزموا بكل طريق لايلوى أحد منهم على أحد ! ولم يبق فى الميدان إلا رسول الله فى بضعة نفر: هم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأخوه ربيعة بن الحارث ابنا عم رسول الله، وأيمن بن عبيد ، وأسامة بن زيد ، وامرأة مؤمنة باسلة هى أم سُلَيم بنت ملحان وكان ﷺ ينادى فى الناس : أين أيها الناس! هلم إلىّ ! أنا رسول الله، أنا محمد ابن عبد الله !» وقد ضَربت الهزيمة على أسماع الناس فهم لايسمعون، ولمّا رأى النبى

ﷺ انكشاف أصحابه وتدافع المشركين عليه نزل عن دابته وشد على الهاجمين وصال فيهم يمينا وشمالا ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأرسل ينادى فى المسلمين: يامعشر أصحاب السمرة ! « شجرة الرضوان » فأقبلوا ، بعضهم فى أثر بعض ، واستبسلوا حول رسول الله

جنود الله وسكينته

ثم أرسل الله ملائكته على المؤمنين فبثت فى قلوبهم السكينة فعادوا وهم أحمى قلبا ، وأمضى عزما ، وأعنف قوة ، من كل موقف سلف وكل موقعة مضت ، وأخذ النبى ﷺ حفنة من تراب فرمى بها وجوه المشركين وهو يقول « حم لاينصرون » فكأنهم كانوا جذوعا خاوية ، وأخذت سيوفُ المسلمين تتلقفهم من كل صوب وكل جانب حتى فر منهم من فر ، وقتل من قتل ، وتركوا من السبايا أكثر من ستة آلاف بين امرأة وغلام ، وتركوا من السلاح والمال والدواب والأنعام والميرة والطعام مالا عد له ، وكان هذا النصر إيذانا بانقضاء قوة الجاهلية . وأنزل الله فى هذه الموقعة قوله جل شأنه « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وذلك جزاء الكافرين »

هذه هى الفتوح الثلاث التي أثمرها صلح الحديبية وأثاب بها النبى رسوله الأمين وشيعته المجتباة وبهذا البيان عن تلك الفتوح مهدنا الطريق إلى سورة الفتح .

وتعد هذه السورة من السور المدنية وإن لم تنزل بالمدينة، لأن الهجرة كانت حداً فاصلا بين السور المكية والمدنية . وقد نزل الوحى بالسورة والنبى ﷺ بِضَجنان، فى طريقه إلى المدينة بعد صلح الحديبية . وضجنان مرتفع على مسافة خمسة وعشرين ميلا من مكة .

وفى نزول هذه السورة كاملة مرة واحدة أو على فترات خلاف، والأصح أنها نزلت مرة واحدة، وعلى هذا القول يكون الإنباء بالوقائع التى حدثت بعدها من آيات الغيب ومعجزات القرآن .

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③

هذا الفتح المبين كما بينا هو صلح الحديبية ، وإنما سماه الله فتحاً مبيناً لأنه فتح أغلاق القلوب وهيأها للاسلام . فقد كانت قريش منذ فجر النبوة تستمع للنبي استماع المتحدى له ، المنصرف عنه ، الذى لا يدرى شيئاً من شرف قصده وسمو غايته «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» فهم كانوا يتلمسون شجب النبي باللغو والمهاترة والسخرية والاستهزاء ودعوى السحر والشعر والكهانة ، وأشباه ذلك مما يدل بحق على أن بينهم وبينه حجاباً قوياً لا ينفذ منه شرف المنطق ولا يشف منه نور الهداية . أما فى صلح الحديبية فقد جاسوا إليه ، واستمعوا له ، وعرفوا ما عرفوا من سماحة

طبعه ، ورجاحة عقله ، وسمو منطقه ، وجلال خلقه، ونبل غايته،وأنه يدفع سوءهم بالرفق، ويردجهالتهم بالعلم ، ويكف عنهم وهو فى ذروة القوة والعزة والمضاء ، فليس عجيباً أن تاين لحكمته القلوب القاسية، وأن تساس لرحمته النفوس الجامحة ، وأن يتسامع العرب بذلك فيدخلوا فى دين الله أفواجا .

ولقد أثاب الله نبيه الكريم ﷺ على هذا الفتح السياسى المبين بما لم يجمعه لنبى قبله : فغفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وأتم نعمته عليه فى الدنيا والآخرة ، وكفل له التوفيق والهداية إلى الطريق القويم وبشره بالنصر العزيز الذى يعز على غيره من الناس .

وليس الذنب الذى غفر الله لنبيه ماتقدم منه وما تأخر كذنوب الناس ، بل هو ماقد يفرط من مقام النبوة مما يحتاج إلى التذكرة والعتاب. وللنبوة تكاليف لايطيقها الناس،ولا يُكلَّفون بها من الله. وقد يأتى النبى بشىء لو أتى به غيره من الأبرار لكان حسناً جميلا ، ولكنه يكون مأخذاً من مآخذ النبى يُذكَّر به ، ويعاتب عليه. أترى لو أن رجلا من البررة نزل عن نصف ماله فى سبيل الله ألا يعد ذلك من مآثر الاحسان الذى يشكره له الله والناس ؟ ولكنه لو صدر من النبى لكان ذلك تفريطا فى مقام النبوة ونزولا بعمله عن ذروة الكمال، لأن النبى لايدخر شيئاً لنفسه ، ولايبقى على بقية من ماله، وهو الذى أرصد حياته كلها لله . ومن أجل ذلك قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ومن النعم التى أتمها الله على محمد صلى الله عليه وسلم نشر دينه ، وإعلاء شأنه ، وحفظ أمته بحفظ كتاب الله الكريم .

وقد أخذ الله على نفسه أن يهدى نبيه صراطا مستقيما . فهذه الهداية هى كفالة التوفيق له فى كل قول يقوله ، وكل عمل يعمله ، وكل قصد يقصده ، وكل رأى يراه .

ولقد كانت أساليب الانتصار التى حباها الله نبيّه فى فتح خيبر ، وفى فتح مكة ، وفى يوم حنين ، أساليب فذة لم تُتَحْ من قبله لنبى من الأنبياء ولا لقائد من القادة ، ولا يمكن أن تتاح لأحد من العالمين .

ففى خيبر دانت له الصعاب القاهرة ، وعنَت له الحصون المنيعة بأيسر مجهود . وهذه الحصون هى التى بناها اليهود لتردّ قوى العرب جميعاً .

وفى مكة فتح الله عليه الفتح العظيم . وألقى له أعداؤه العتاة الاباة زمام الطاعة بغير مشقة ولا قتال .

وفى يوم حنين نصره الله ومكنه من نواصى العرب بعد أن انهزم عنه أصحابه واحتوتهم أعطاف الأرض وأطرافها ، ولو تركت المقدمات تحدث نتائجها لضاع الاسلام فى هذه الموقعة والعياذ بالله .

فهذه هى المثوبات التى أنعم الله بها على محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجمعها لغيره من الأنبياء والمرسلين .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥
وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ
ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

بعد أن أبان الله تبارك وتعالى مازود به نبيه من أشتات النعم، وما هيأه له من منازل السعادة، عطف سبحانه على المؤمنين بما تفضل به عليهم من ثمرات هذا الفتح المبين ليريهم أنه كامل شامل بتوفيق الله.

وقد مهد سبحانه لما وعدهم به بقوله: (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما) أى أن كل قوى السموات والأرض فى قبضته يصرفها بعلمه، ويدبرها بحكمته، فهو سبحانه عليم لايخفى عليه شىء، حكيم لايخطئه قصد؛ وقد بسط الله قدرته وتدبيره على السموات والأرض، وأحاطهما بعلمه وحكمته، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . ، وهذا غاية الخلق، وثمرة من ثمرات العلم والحكمة،

فانه سبحانه يعلم بواطن أمور الناس ؛ ودقائق أنفسهم ، ويسوسهم بحكمته ليثيب مؤمنيهم ، ويعذب الضالين منهم ، وقد قرن المؤمنات إلى المؤمنين والموقف موقف فتح وجهاد ، لأن المرأة إذا آمنت بالله ، وأحسنت مواتاة زوجها ومعاونته ، كانت شريكته فى الدنيا والآخرة . وقسيمته فى الرضا والمغفرة .

وفى حديث مسلم أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، أنا وافدة النساء إليك إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك : إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمراً ، أو مجاهدا ، غزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه ؟ فقالوا يارسول الله ماظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا ! فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله .

فانصرفت المرأة وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب وعرضت عليهن ماقاله رسول الله ففرحن وآمن جميعهن .

إذن فقد كان من شمول نعمة هذ الفتح وتمام رضا الله عن أهله أن أشرك معهم المؤمنات فيما أثابهم به من دخول الجنة وتكفير السيئات

وتكفير السيئات سترها وتغطيتها ، والمراد بالستر والتغطية محوها وعدم المؤاخذة عليها . وهذا الضمان من الله للمؤمنين والمؤمنات هو الفوز العظيم .

ولا شك أن هذه المثوبات العظمى جاءت بعد أن تفضل الله على المؤمنين فأنزل السكينة فى قلوبهم حين بايعوا النبي على الموت وجعلوا أرواحهم فى ميزان الله. وبهذه البيعة سادالاسلام . فان المسلمين اتخذوها شعاراً لهم فملكوا بها الأرض ونشروا بها النور فى العالمين .

ولقد كان من تمام نعمة الله على المؤمنين والمؤمنات أن يبين لهم ماسيصيب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة؛ لأن النفاق والكفر هما القوتان اللتان وقفتا للاسلام بكل مرصد ، وأخذتا على المسلمين كل سبيل ؛ والنفاق أنكى على الاسلام والمسلمين من الكفر ، لأن النفاق قوة خفية تدبّر فى الظلام وتستتر بقناع من الاسلام .

وقد وصف الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بأنهم يظنون بالله ظن السوء . ذلك أنهم ظنوا أن الله سيخذل محمداً صلى الله عليه

وسلم وأصحابه ، ويمكن منهم عدوهم ، وفى ذلك مافيه من سوء الظن بالله ؛ ثم أنذرهم الله بأن هـذه الدائرة التى ظنوا أنها ستصيب النبى وأصحابه ستدور عليهم ؛ وأضاف الله إلى ماسيلحقهم من الذلة والخيبة ، أنه غضب عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا .

وغضب الله على من عصاه : هو السخط عليه ، والاعراض عنه ، وصبُّ العقوبة عليه ؛ واللعنة هى الطرد والابعاد من رحمة الله .

وقد أعاد الله قوله : (ولله جنود السموات والأرض) فى معرض غير المعرض الذى ابتدأ به ، فالأول كان المجال فيه مجال تصريف وتدبير ؛ ولذلك قرنه بالعلم والحكمة ؛ والثانى مجال قهر وغلبة ، ولذلك قرنه بالعزة والحكمة .

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

لما قضى الله للمؤمنين أن يثيبهم بما أثابهم به ، وللمنافقين والمشركين أن يعاقبهم بما عاقبهم به ، ترك الأمر فى الحالين إلى علم الله وشهادة نبيه فهو صلى الله عليه وسلم بين يدى ربه شاهد يقضى الله بشهادته ويحكم سبحانه بسابق علمه وحكمته . وهو فى دنياه يبشر المؤمنين بالجنة ومنذر يخوف الكافرين النار .

وبعد أن خاطب الله نبيه عطف إلى أمته فقضى بأن رسالة الرسول بالتبشير والانذار والشهادة تقتضى من أمته أن يؤمنوا بالله — والايمان

هو التصديق القاطع والاذعان التام ، ويتبعه الطاعة والعمل — وأن يعزروه أي ينصروه ، وأن يوقروه أى يعظموه ؛ والضمير فى كليهما لله جل شأنه، وكذلك قوله وتسبحوه بكرة وأصيلا. وتسبيح الله تنزيهه والبكرة والأصيل طرفا النهار ، والمراد منهما الدوام. فانك إن قلت لصاحبك : اذكر مودتى بكرة وأصيلا ، كان المراد اذكرها دائما

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

الآن وقد بسط الله رسالة الرسول ، وأخذ سبحانه على عباده أن ينصروه فقد تكلم جل وعز عن بيعة الرضوان التى بايع المسلمون فيها نبيهم على الموت فى سبيل الله ، فأكد هذه البيعة وأوثقها بأن جعلها مع ذاته العلية بل بأن قصرها على نفسه، ثم زادها تأكيدا وتوثيقا فجعل يده فوق يد كل مسلم مبايع، والأمر فى هذا على التمثيل والتصوير ، وإلا فالله تبارك اسمه منزه عن الجوارح ، والمراد أن عقد البيعة مع رسول الله هى عقد مبرم ورباط محكم مع الله ، فمن نقضه فقد عاد نقضه على نفسه فيصبح طريد الله ، ومن أوفى بها استحق الأجر العظيم من الله ، والهاء فى عليه مضمومة فى قراءة حفص ، وإنما ضمت الهاء ليأتى لفظ الجلالة بعدها مفخما ، وإذا فخمت لفظ الجلالة فقد فخمت العهد معه .

وفى هذه الآية من سمو التعبير وروعة التصوير ماتَدَّعن كل خاطر وجاوز كل تقدير . وأي مؤمن ممن نظمتهم هذه البيعة يرى أن هذه البيعة لم تعقد إلا مع الله وأن يده لم تتصل إلا بيد الله وأن له الأجر العظيم حين يوفى بعهده مع الله — أى مؤمن يستمع لهذا القول ثم يحول بخاطره لحظة واحدة أن ينقض العهد ويفر من الموت ؟

فان قلت فما بال هؤلاء قد فروا من الموت يوم حنين ؟

قلت هؤلاء قد سلبهم الله فى هذا اليوم ألبابهم وأذهل قلوبهم ليتم لهم آيته العظمى وعبرته البالغة ، من الاعتماد على الله ، والاعتزاز بقوته ، فلا يأخذهم الزهو بكثرتهم ، ولا يوهنهم الخوف لقلتهم ، وبذلك تتم لهم نعمة الايمان بالله .

ولعلك علمت من توكيد هذه البيعة ، وتشريفها ، وتكرمة من عقدوها حتى كفل الله لهم مغانم الدنيا وسعادة الآخرة — لعلك علمت من ذلك كله أن هذه البيعة هى الغاية العظمى من الايمان ، وأن الله عقدها مع هؤلاء ليكونوا قدوة صالحة لمن سواهم من المؤمنين . فمن لم يجعل نفسه وروحه وكل مايعتز به من أهل ومال وجاه فى ميزان الله فهو رجل مريض القلب واهن الايمان « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

لما استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب الضاربين على مقربة من المدينة ليذهبوا معه إلى مكة حين خرج إلى الحديبية تخاذلوا وتعللوا، وقالوا كيف نعرض أنفسنا لحرب قريش وثقيف وكنانة بأسرها وحلفاء هؤلاء جميعا ولا قِبَل لنا بهم، وظنوا أن لن يعود رسول الله ولا أحد من أصحابه لعظم ما يتعرضون له، وهؤلاء الأعراب هم: جُهَينة، ومُزَينة، وغِفار، وأسلم، والدِّيل، وأشجع، ولم

يكن الايمان قد تمكن من قلوبهم ، فهؤلاء أخبر الله رسوله أنهم سيعتذرون إليه حين يصل إلى المدينة بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الرحيل ، لأنهم لا يجدون من يخلفهم على رَعْيِهَا وَرِعَايتِهَا ، ثم يسألونه أن يستغفر لهم . وهؤلاء قد فضحهم الله وكشف باطن أمرهم فكذبهم فى اعتذارهم هذا وقال لهم ماشغلتكم أموالكم ولا أهلوكم بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون أي لن يعودوا إلى أهلهم أبدا ؛ وزُين ذلك فى قلوبكم بما ساكنها من الرعب والخوف من أهل مكة وحلفائهم ، وظننتم بالله ظن السوء حين حدثتكم أنفسكم أنه سبحانه سيقهر رسوله بأيدي أعدائه وكنتم قوماً بوراً أى هالكين ، وبور جمع بائر ، والهلاك هنا هو الفتنة والضلال وما يتبعهما من الخسران والوبال . وهل تجد أخسر صفقة ممن يفضحه الله ويكذبه ويتهمه بسوء الظن به ، ويبعده عن حظيرة المؤمنين ، ويجعله فى زمرة المنافقين ؟

وقد أمر الله رسوله أن يقول لهم حين يأتون معتذرين إليه . (من يملك لكم من الله شيئاً ، إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً » وهذا رد على مايعتذرون به من البقاء لرعاية أهلهم وأموالهم ، أى من يملك لكم الضر إن أراد لكم الخير ، ومن يملك لكم الخير إن أراد بكم الضر ؟ ومن يدفع العدو المغير على أموالكم وأهليكم إذا شاء الله أن يخذلكم ويُديله منكم

بل لقد علم الله أنكم كاذبون فيما تعتذرون به ، وليس لهذا الكذب من علة إلا ضعف الايمان فى قلوبكم ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ؛ فقد أعد الله له ناراً مستعرة وعذاباً أليما .

ولم يشأ الله سبحانه أن يؤيس هؤلاء من رحمته ، بعد أن فضحهم وعنفهم وتوعدهم وأبان ما أحاط بهم من الخيبة والخسار ، فلم يقطع رجاءهم من رحمته ، بل أنبأهم أنه هو وحده المتفرد بملك السماء والأرض ، وأنه هو الذى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ثم غلبت رحمته غضبه . فقال : (وكان الله غفوراً رحيما) .

وإذن فقد ساق الله حديث هؤلاء المنافقين بعد حديث أولئك المؤمنين ليجعله تمام العبرة البالغة والحجة الدامغة ، فان الشيء يزداد نصاعة ووضوحا إذا قيس بضده وقوبل بنقيضه .

فالمؤمنون قد بايعوا الله على الموت فأكرمهم بأرفع درجات الاكرام ولم ينقصهم الفداء شيئا من أنفسهم ولا أهليهم ولا أموالهم بل زادهم فى ذلك كله

وأما الأعراب فقد أشفقوا على أنفسهم وخافوا أن يحاط بهم فلم يزدهم ذلك شيئا فى حياتهم ولا رفاهتهم ولا اطمئنان نفوسهم بل عاشوا فى رعب وفزع وشدة وحرمان حتى بلغ الله من تأديبهم ما أراد .

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ
ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ○ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ
قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن
تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ○
لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ○

هؤلاء المخلفون هم الأعراب الذين استنفرهم الرسول فلم يستجيبوا له إشفاقاً على أنفسهم من خوف الموت، وهؤلاء مازالت فى نفوسهم بقية من جاهلية يذهبون إلى القتال ابتغاء مغنم يصيبونه أو ثأر يطلبونه، فأما الغرض السامى وهو اعلاء كلمة الله وبيع النفوس والأرواح فى سبيل الله، فليس له نصيب من مآربهم ولا غاية من مقاصدهم، ولقد سبقت كلمة الله فأوحى

إلى رسوله أن الله سيثيب أهل الحديبية فتحاً قريباً يبدل عسرهم يسرا وضعفهم قوة ، فكان ذلك فتح خيبر، وكانوا هم أصحاب الحق فى مغانمه . فالله سبحانه يقول إن هؤلاء المخلفين الذين تخاذلوا عن الذهاب إلى مكة ؛ سيقولون لكم حين تنطلقون إلى قتال اليهود ، ذرونا نتبعكم لنفوز بما تفوزون من الغنائم ، يريدون أن يبدلوا كلمة الله بمنح هذه المغانم أهل الحديبية ، فهؤلاء أوحى الله إلى رسوله أن يقول لهم لن تتبعونا فذلكم ما أمرنا الله به من قبل أن تتهيئوا للخروج ؛ فأما هؤلاء الأعراب المخلفون فلن يستقبلوا هذا المنع بالطاعة والاقرار بل سيقولون إن الله لم يمنعنا ، بل أنتم الذين تمنعوننا حسداً منكم وكراهية أن نشاركم مغانمكم ، وذلك من سوء فهمهم وضعف إدراكهم لحقيقة الايمان .

ثم أمر الله رسوله أن يتحداهم بقوله إن كنتم تريدون البذل من أنفسكم فى سبيل الله فستُدعون لقتال قوم أولى بأس شديد ، تحاربونهم على أحد أمرين : إما القتال ، وإما الاسلام ؛ فان أقبلتم أثابكم الله بأحسن الأجر وأجل الثواب ، وإن نكصتم على أعقابكم عذبكم عذاباً أليما . وقد أشار الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة إلى حروب الردة وغزو فارس والروم وإلى الضرب فى أطراف الأرض جهاداً فى سبيل الله .

ثم رفع الله حرج التخلف عن الأعمى والأعرج والمريض، فهؤلاء لا يُكلّفون القتال ؛ أما من عداهم فمن يطع الله ورسوله ويبادر إلى الجهاد مدفوعاً إليه بعقيدته الخالصة ، وإيمانه القوي ، ورغبته الملحة فى إعلاء كلمة الله فان الله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول عن سبيل الله ويرغب بنفسه عن داعى الله فان له منه العذاب الأليم .

والذى نستخلصه من هـذه الآيات الكريمة أن المنافق الذى لم يستضىء قلبه بنور الايمـان لا يؤذن له فى الجهاد ، لأنه يبث الخور والوهن والخبال فى نفوس المجاهدين « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » وكان كثير من هؤلاء الأعراب ينطوى على الخديعة والنفاق . وقد لقى الرسول الكريم من هؤلاء عنتاً مرهقاً وعناء شديداً « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم »

ولكن نفاق الأعراب كان من طراز غير طراز نفاق أهل المدينة فنفاق الأعراب جفوة وغلظة وجهالة ؛ ونفاق منافقى المدينة حقد وحسد وضلالة . وللأول حد ينتهى إليه ؛ أما الثانى فلا حد له . ومن أجل ذلك عاقب الله الأعراب على تخلفهم عن الحديبية بحرمانهم من الجهاد فى خيبر ، ثم سوغ لهم الجهاد فيما يلى هذا « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » ذلك لأن

نفاقهم نفاق خُلُق لا نفاق عقيدة ، والخلق الملتوى قد يستقيم ؛ أما العقيدة الفاسدة والحقد الدفين فليس لهما من دواء . وقد اشترك هؤلاء الأعراب فى عهد رسول الله فى وقعة مؤتة [1] وفى حرب هوازن واشتركوا من بعده فى حروب الردة وفيما بعدها فى حروب فارس والروم فأبلوا بلاء حسناً وفتحوا فتحاً عظيما .

لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

فى هاتين الآيتين أعظم مامنح الله قوما من الجميل فى الدنيا والآخرة ، فهو قد سجل رضاه عنهم ووصفهم بالايمان ، وأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً .هؤلاء هم الذين بايعوا رسول الله على الفداء تحت الشجرة يوم الحديبية . وبهم ضرب الله المثل للمؤمن الكامل الايمان . فان شعار الايمان الصحيح كما علمت هذا الفداء . ولم ينكص عن مبايعة النبى ﷺ إلا رجل واحد هو الجد بن قيس وكان من المنافقين ، وهذا صرفه الله عن البيعة فاختفى عن العيون . وذلك من فضل الله على

---

(١) مؤتة : قرية فى حدود الشام .التقى فيها المسلمون بالروم سنة ثمان من الهجرة وقتل فيها جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحه ، وزيد بن حارثة ؛ وكان المسلمون فيها ثلاثة آلاف والروم نيفا ومائة ألف ،وقد أبلى المسلمون بلاء شديدا ثم عادوا موفورين .

المؤمنين . ولما أتم المؤمنون بيعتهم ضرب النبي بيد على يد، وقال : هـذه بيعة عثمان . وكان أول من مد يده بالبيعة سنان بن أبي سنان ؛ قال للرسول ابسط يدك أبايعك ؛ فقال الرسول : علام تبايعني ؟ قال : على ما فى نفسك ! أي على ما تريدنى عليه ، وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله تحت الشجرة . قيل على شيء تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت . وكان معقل بن يسار آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس . وكان عمر بن الخطاب رافعاً يده تحت يد النبي ﷺ ليعتمد عليها حتى لا تتعبها البيعة. وكان المسلمون يتدافعون على رسول الله وهم يبايعونه ، وبعضهم بايعه مرتين .

وإذا أردت أن تحصى آثار رضا الله عن أصحاب الشجرة ماوسعك العد ، وحسبهم ما رواه الشيخان من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم : « أنتم خير أهل الأرض » بل حسبهم أن يقول النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »

ولقد كان أهل الشجرة رضى الله عنهم فى ثورة وجدانية من حب الله والولاء ،له والرغبة فى ملاقاة العدو، والظمأ إلى فتح مكة، فعلم الله ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وآثابهم فتحاً قريباً . وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر ، وهم من أجل ذلك ذوو الحق فيه ، وكل من ناله فيء من المغانم ولم يكن من أهل الرضوان فهو آخذ من فضلهم ومحسوب عليهم

وقد وصف الله مغانم خيبر بقوله ومغانم كثيرة يأخذونها . وإذا علمت أن خيبر كانت مثابة أموال اليهود، لا فى خيبر وحدها بل فى بلاد العرب بأسرها ، عرفت قدر هذه المغانم من الكثرة والنفاسة .

وقد سعى أهل خيبر لدى الرسول ﷺ بعد ما انتهى من فتح حصونهم على أن يحقن دماءهم ودماء ذراريهم ، وأن يترك لهم ما على أجسادهم من الثياب ، وله بعد ذلك ما لهم من أرض وذهب وفضة، وله عليهم ألا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا يارسول الله إن لنا علماً بالعمارة والقيام على النخل فأقرّنا على أن يكون لك شطر ما أخرجت الأرض من الثمر والحب ، فأقرهم الرسول وقال أقركم على ذلك ما أقرّكم الله ، وأقاموا على ذلك بقية عهد الرسول وطوال عهد أبى بكر . فلما كان عهد عمر فشا فيهم الفجور وعادوا إلى بث الفتنة بين المسلمين، وكان عمر قد سمع رسول الله يقول لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب، فأجلاهم إلى الشام ، وقسم خيبر وأموالها على ذوى الحق فى فيئها ، وجعل لأمهات المؤمنين فيها نصيباً ، وقال أيتكن شاءت أخذت الثمرة، وأيتكن شاءت أخذت الضيعة ، فكانت لها ولمن يرثها .

ولما كانت بيعة الرضوان من أعظم مشاهد الاسلام وأحفلها برضوان الله فقد قصد المسلمون شجرتها من كل مكان ليتبركوا بها وليسألوا الله حاجاتهم عندها وأقاموا الصلوات عندها وتهافت الناس عليها فى عهد أبى بكر . فلما كانت خلافة عمر خاف على المسلمين أن يفتتنوا بها

وأن يحسبوا بها قوة تغنى من الله شيئاً ؛ وكان كثير من العرب حديث عهد بجاهلية ، فأجمع الرأى على استئصالها ، فبعث اليها من قطعها بليل فلما كان الصبح ذهب الناس فلم يجدوا لها من أثر .

وفى هذه الآية الكريمة وصف الله نفسه بالعزة والحكمة . وقد جاء هذا الوصف فى هذه السورة مرتين . وفى كلتا المرتين تجد العزة والحكمة أدل على الله من كل ما سواهما من الصفات . ففى الأولى قال الله جل وعز « ولله جنود السموات والأرض » فهو عزيز بقوته ، حكيم بتدبيره ، ولولا اقتران حكمة الله بعزته ما طاول الكافر المتجبر ، ولا أملى له ، ولا أرخى له حبل غروره حتى يعثر به .

وفى هذه الآية وعد الله المؤمنين مغانم كثيرة فعجل لهم بعضها وأجل بعضها ، وهو فيما عجل وأجل عزيز لا يُغلب. حكيم لا ينحرف .

وقلما اجتمعت العزة والحكمة للناس فى نطاق واحد ، لأن العزة هى القهر والغلبة ، والحكمة وضع الشىء فى موضعه ؛ ومن أشق الأمور وأبعدها عن الاتفاق أن تجد القوى القاهر واضعاً كل شىء فى موضعه ؛ لا تعليه العزة ، ولا يستفزه الغضب ، ولا تصرفه القوة والصولة عن المحاسنة والملاينة والصبر والأناة وإيثار الصلح والصفح على البطش والقتال .

وإن فيما حدث من أمر الحديبية لعبرة بالغة وآية بينة لحكمة العزيز وعزة الحكيم .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا

فى هاتين الآيتين فضل على فضل وجميل على جميل ، واذا رضى الله عن امرىء غمره بنعم لا تخطر له بحال ، ولا تعرض له ببال ، فهو سبحانه قد رضى عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأثابهم الفتح القريب ، وعجل لهم المغانم الكثيرة، ثم التفت اليهم توكيداً للرضا وتأييداً للقبول. فقال : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » والمغانم الكثيرة هى ماهيأه الله لهم من فتح فارس والروم وما الى هذين من أقطار وأمصار وكنوز وذخائر، بعد ماعجل لهم من فتح خيبر ؛ وزاد الله الفضل وضاعف الجميل فكف أيدى الناس عنهم ، وهؤلاء الذين كف الله أيديهم عن المؤمنين هم أسد وغطفان وكانوا حلفاء اليهود، وللحليف العربى على حليفه حق نصرته ظالماً أو مظلوماً ؛ فلما قصد الرسول خيبر جمع هؤلاء جموعهم وكانوا من أكثر العرب عدداً ، وأقواها شكيمة ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب فعاداو الى منازلهم تاركين حلفاءهم اليهود هدفاً للمؤمنين ،

وما عرف هذا الخذلان عن هاتين القبيلتين قط ، وهذه آية من رضوان الله أشار الله اليها بقوله تعالى« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما » .

وكما كف الله أيدى أسدُ غطفان عن نصرة اليهود فى خيبر كف أيدى اليهود عن الذهاب الى المدينة حين تركها رسول الله إلى الحديبية ، ولم يكن بالمدينة حينذاك الا المنافقون والمستضعفون من من الرجال والنساء والولدان ، ولو فعلوا لدمروا ديار المسلمين ، وقتلوا خلائفهم ، وأخذوا الطريق عليهم فى عودتهم ؛ ولكن الله حمى ظهور جنده ، وحاط ديارهم ، وأوقع الرعب فى قلوب اليهود والمنافقين فلم يفعلوا شيئاً .

وكذلك كف الله أيدى قريش وهوازن وثقيف ولو جمعوا جموعهم للدفاع عن مكة حين قصدها الرسول لكان لهم شأن وكان لهم أثر لا يعلم مداه الا الله .

والحق أننا أينما أجلنا النظر فى هذه الفتوح التي أنزل الله فيها سكينته على المؤمنين رأينا لطف الله بهم شاملا ، ورعايته لهم محيطة وفضله عليهم عظيما ،لأنهم باعوا نفوسهم من الله ، وصدّقوه ما عاهدوه عليه ، فأعزهم ونصرهم ، وما النصر إلا من عند الله ، والله ذو الفضل العظيم . فأى مؤمن بعد أن يرى هذا الذى رآه لايبلغ به الايمان غاية مداه ، ولاينكشف له ظلام الطريق عن نور الله وهداه .

ويقول الله جل علاه « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » أى وعجل لكم مغانم أخرى كانت فوق منال أيديكم ،وأبعد من مجال قوتكم ، وهى مغانم حنين ، وهذه قد أحاط الله بها أى هو وحده الذى استولى لكم عليها ولما كانت هذه النعمة السابغة من أدل المظاهر على تفرد الله بالقدرة فقد ذيل القول بقوله تبارك آيته : (وكان الله على كل شىء قديراً)

وقد عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكثر مغانم حنين على أهل مكة ، وعلى العرب الذين أسلموا ، ولم يتمكن الايمان من قلوبهم ، ليتألفهم على الايمان ، وترك الأنصار فلم يعطهم شيئاً ، فأحزنهم ذلك لأنهم ظنوا أن بهم هوانا على رسول الله .

وفى حديث أبى سعيد الخدْرى : لما أعطى رسول الله ماأعطى من مغانم حنين فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار شىء وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، وحتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يارسول الله ، ان هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ! قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء ! قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ما أنا الا من قومى !

قال : فاجمع لى قومك فى الحظيرة [١] ، فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا اليه أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهل له ، ثم قال : يامعشر الأنصار ما قالة [٢] بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، لله ولرسوله المن والفضل ، فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبًا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . وجدتم فى أنفسكم يامعشر الأنصار فى لُعاعة [٣] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم ! أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبًا [٤] وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قِسما وحظا . ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقو

---

(١) الحظيرة أرض يضرب عليها سياج . وكانت حظيرة الأنصار إلى جانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) القالة أحدوثة السوء (٣) اللعاعة البقية اليسيرة (٤) الشعب — بكسر الشين — الطريق فى الجبل

وفى يوم تقسيم المغانم بات رسول الله ﷺ جائعاً وبات أهله جياعا وقد جاءته فاطمة الزهراء وزوجها على عليهما السلام يستوهبانه جارية أو عبداً يحمل عنهما بعض عبء العمل فأبى وقال أولا أدلكما على خير من ذلك ؟ تقولان عقب كل صلاة : سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر عشر مرات [1]

هذا ما فعله رسول الله بنفسه وبأهله وبأحب الناس إليه وله خُمس المغانم ؛ ولكن كيف يذكر رسول الله نفسه ! وقد بذلها لله ؛ وكيف يذكر أهله وهم أولى الناس بأن يقتدوا به ويتخلقوا بخلقه . وقد أعطى رسول

---

(١) والحديث كما رواه ابن سعد عن عطاء بن السائب عن أبيه عن على رضى الله عنه ـ أى علىّ ـ أنه قال لفاطمة والله لقد سنوت « أى حملت الماء » حتى أسليت صدرى (أى أذهبت شحمه) وقد جاء الله بسبى فاذهبى فاستخدمى (أى اطلبى منهن خادمة) فقالت وأنا والله قد طحنت حتى محلت يداى (أى يبست) فأتت فاطمة النبى ﷺ فقال ماجاء بك أى بنية ؟ فقالت جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت فأتياه جميعاً (أى على وفاطمة) فذكر له على فقال لا والله لا أعطيكما وأترك أهل الصفة (الفقراء المنقطعين إلى الله) تتلوى بطونهم لا أجد ماأنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم. فرجعا فأتاهما ﷺ فقال: ألا أخبركما بخير مماسألتمانى؟ فقالا: بلى. فقال : كلمات علمنهن جبريل: تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشرا وتكبران عشرا و إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين قال على فوالله ماتركتهن منذ علمنيهن فقال له ابن الكواء ولا ليلة صفين ؟ قال ولا ليلة صفين .

الله أبا سفيان من هذه المغانم مائة ناقة وأعطى ابنه معاوية مثلها وأعطى كثيراً من أشراف العرب مثل ما أعطاهما .

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا

فى هاتين الآيتين علو فى الفضل وتطول فى الرعاية وعهد بالمؤازرة ولقد رأيت فى الآيتين الماضيتين كيف امتن الله على المؤمنين بأنه كف أيدى الناس عنهم. والآن يقول الله تبارك وتعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) أى لو جاءت أسد وغطفان ليعينوا أهل خيبر وهم لا يُحصَون عدداً ما ثبتوا لكم ولولوا فراراً من بأسكم ، ولو استنفروا العرب لنصرتهم عليكم ما وجدوا وليا يصافيهم ولا نصيراً يظاهرهم ، وهذه سنة الله التى خلت فى الأنبياء: لا يُسلمهم لعدوهم ، لأنهم يعتزون به ، ويعتصمون بقوته ، وينصرون دينه ، وينتصرون به ، وقد أخذ الله على نفسه العهد أن ينصر من ينصره والله قوى عزيز . وإذا كان الأنبياء وصحابتهم يتعرضون للمحنة . ويُبتلون أحياناً بالقهر فما ذلك إلا ليزيد الله صفاء قلوبهم بالصقل والتهذيب ، وليضاعف الله ثوابهم بما صبروا الله وأسلموا وجوههم لقضائه . ولكن

الله كفل لهم النصر الفاصل ، وكتب لهم النهاية الحاسمة « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون .

وفى قوله سبحانه لأغلبن أنا ورسلى ما ينبئك أن الله يؤيد جنده ويؤازرهم ويحوطهم ويمدهم بما شاء من الامداد . ولقد تفضل الله فأعان نبيه وجنده فى قتال الكافرين باللطف الخفى والمدد العظيم . ففى بدر أرسل الله الملائكة مردفين يثبتون الذين آمنوا ويُلقون فى قلوب الذين كفروا الرعب . وفى يوم الأحزاب وكان العرب قد أجلبوا على المدينة بعشرة آلاف يعاونهم منافقو المدينة ويهودها، والمسلمون فى قلة من عددهم وعدتهم وأقواتهم — فى هذا اليوم أعان الله المؤمنين بالرياح العاتية السافية فى الظلام الحالك فأطارت خيام المشركين وبددت سلاحهم وعتادهم وملأت بالرمال أعينهم وقذفت الرعب والوجل فى نفوسهم حتى ضرب بعضهم بعضاً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وفى الحديبية وخيبر ومكة وحنين نصرهم الله بما علمت . وحتى فى أُحد وهى الموقعة التى انكشف فيها المسلمون كف الله عنهم أيدي المشركين فلم يهاجموا المدينة. ولولا لطف الله لهاجموها وهم ظافرون

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ
مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟
لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا

وهذا أسلوب آخر من فضل الله ونعمته شمل به أهل الحديبية.

فى الآيات السابقة امتن الله عليهم بالنصر بعد النصر، وكفل لهم المغانم بعد المغانم. ولكنه فى هاتين الآيتين امتن الله عليهم بنعمة هى أفضل من النصر وأغلى من الغنيمة وهى نعمة السلام.

فى الآيات السابقة كفل الله الكف من جانب الكافرين وحسب، أما فى هاتين الآيتين فقد كفل الله السلام من الطريقين وكتبه على الفريقين

وقد علمت أن كلا الفريقين كان قد بذل نفسه للقتال حتى الموت ، فالمسلمون قصدوا البيت الحرام تحقيقاً لرؤيا النبي فصُدُوا عنه ، وهو مثابة الناس جميعاً ، فلا بد لهم من دخوله ، وأهل مكة قد خرجوا لهم وأرواحُهم فى أكفهم يحلفون بالله لا يدخل محمد مكة أو يموتوا جميعاً ، وقد عبث الشيطان برؤوس فريق من شبابهم فراحوا متحسسين متخافتين يحملون سيوفهم بأيديهم لعلهم يصيبون النبي فى نومه أو راحته فيقتلوه وكانوا نحو الثمانين ، فأحاط بهم بعض أصحاب الرسول وساقوهم أسارى إليه فقال لهم الرسول هل جئتم بعهد من أحد ؟ قالوا لا . فعفا عنهم ، وجاء آخرون فقذفوا معسكر الرسول وقذفوا المسلمين بالحجارة فعفا عنهم ، وقتل فريق منهم أحد أصحاب الرسول فعفا عنهم . وأنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين وكانوا كالمرجل يغلى تحرقاً وتشوقاً لدخول مكة فهدءوا بسكينة الله واقتدوا فى الصبر والأناة برسول الله ، ورأى زعماء مكة وأشرافها هذا الترفع والتكرم من رسول الله وهو فى تمام أهبته وفى ذروة عزته وقوته فهابوه وكفوا أيديهم عنه والفضل فى ذلك كله لله .

وفى ذلك يقول الله جل وعز « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » وبطن مكة هى الحديبية وفيها مبالغة فى القرب من مكة أى كف أيديكم عن أهل مكة وأيديهم عنكم وأنتم فى الصميم من وطنهم ، وقد أظفركم الله عليهم أى

أظهركم وأعلاكم عليهم . فنى الظفر هنا معنى الظهور والغلب والاستعلاء .
وقد علمت أن رسول الله حين بلغ الحديبية كان طريق مكة مفتوحاً أمامه ، ولو اتخذ ﷺ شباب قريش الذين ظفر بهم رهائن عنده لبلغ من آبائهم وأهليهم ما يريده كل فاتح ، ولكنّ عمل رسول الله وغايته فوق عمل الفاتحين وغايتهم . وفى قوله تعالى « وكان الله بما تعملون بصيراً » تسجيل لما قدّم رسول الله وصحابته من قول صالح وعفو ومغفرة وفيه كفالة من الله بأنه لن يضيع عليهم سناء الأجر ولا حسن العاقبة .
وقرأ أبو عمرو « وكان الله بما يعملون بصيراً » بالياء فى يعملون فيكون مرجع الضمير إلى قريش ويكون تهديداً لهم وإيذاناً بقضاء الله فيهم .

وبعد فقد كشف الله سراً من أسرار هذا السلام الذى بسط الله ظله على الفريقين فبين أن هذا السلام لم يكن تكريما لمشركى قريش ولا دفعاً للسوء عنهم و «هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله » أى أنهم فوق كفرهم صدوكم عن المسجد الحرام وصدوا الهدى المحبوس بالحديبية عن بلوغ موضعه من منى حيث ينحر تقرباً إلى الله، فهم قد كفروا بالله، وخانوا أمانة البيت الحرام، فليس لهم عند الله عهد ولا ذمة « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات » من أهل مكة أسرّوا الايمان على غير علم منكم ومن قريش ؛ فاذا دخلتم مكة عنوة لم تحذروا أن تطأوهم بأقدامكم فيمن تطأون من أهل مكة ، فيصيبكم العار من أمرهم ، وأنتم لا تعلمون — لولا هؤلاء لسلطكم الله

عليهم وملككم رقابهم ؛ ولكن الله شمل أهل مكة بالرحمة من أجلهم و « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما » أى لو فارق هؤلاء المؤمنون مكة وزالوا عنها لعذب الكفار من أهل هذا البلد الأمين عذاباً أليما يكتوون به فى دنياهم من القتل والسبي والذل والعار .

وكان هؤلاء المؤمنون المستترون الذين بسط الله رحمته على أهل مكة من أجلهم تسعة : سبع رجال وامرأتين . فهؤلاء أكرمهم الله ورحم بهم غيرهم فأنعم على هؤلاء الذين رحمهم بهم بنعمة الحياة ونعمة الايمان .

وأخيراً فقد استخلص الله العبرة وجمع أشتات الحقيقة من هذه السورة فى قوله جل شأنه « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما »

أى اذكر إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية . وحمية الجاهلية هى ثورة النفس بغير حجة ولغير حقيقة ، وهى على هذا الوضع نزوة عصبية من نزوات الوهم والخيال . وهذا الضرب من الحمية هو الذى حال بين قريش وبين الاسلام وأغراهم برسول الله بضعة عشر عاماً لايستمعون فيها لقول الحق ولا يصغون فيها لداعى العقل ولا يرجعون فيها لنجوى الضمير . وهو الذى جعل أشرافهم حين يعارضون الرسول يأتون بأفعال الحمق والسفهاء والمجرمين ، وإلا فأى شريف كانت تسوغ له نفسه حين يخاصم رجلا خصومة فكرة وعقيدة أن يرميه بالأقذار

أو يدفع امرأته لتلقي الشوك ببابه ، أو يسلط الغلمان ليحصبوه بالمدر والحجر . وقد طال ما لازمهم هذا الضرب من الحمية حتى عبر الله عنهم بأنهم جعلوا الحمية فى قلوبهم ولم يقل أثاروها فى قلوبهم لتكون كأنها شيء وضع فى القلب فلا يفارقه

وهذه الحمية — حمية الجاهلية — هى التى جعلها الكفار فى قلوبهم حين ثاروا بالنبى فى الحديبية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى فعصمهم بها من الشر والفتنة والضلال

وقد قابل الله تعالى بين الكفار والمؤمنين مقابلة ظهرت فيها زرايته بالأولين ورعايته للآخرين وهذه المقابلة تتبين فى كل كلمة من الآيتين : فالفعلان جعل وأنزل يدلانك على أن الكفار وضعوا الحمية فى قلوبهم وضعاً وألقوها إلقاء من غير تسويغ أو اقتضاء . أما أنزل الله السكينة فمناها أن الله أرسلها إليهم من مكان رفيع . وبينما الفاعل فى جعل هو الذين كفروا ترى الفاعل فى أنزل هو الله جل علاه . فاذا انتقلت إلى المفعولين وجدت بين الأول والثانى بونا بعيداً فالحمية كلمة ملتهبة متقدة وقد كررها الله جل شأنه لتزداد التهاباً واتقاداً والسكينة كلمة وادعة ساكنة تطمئن منها القلوب وتنوء إليها العقول . ثم انظر إلى الحمية كيف أضيفت إلى الجاهلية وإلى السكينة كيف أضيفت إلى الله . ثم تبين كيف ذكر الله رسوله فى طليعة المؤمنين فقرنهم بذكره كما شرفهم بصحبته .

هذه كلها مواطن من عناية الله ورعايته لمؤمنى هذا الفتح وفيها فصول من جلال البلاغة ودقة الوضع تحار فيها العقول .

وحين أنزل الله سكينته على المؤمنين « ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » .

وكلمة التقوى هى كلمة التوحيد. وهى التى أشعرت المؤمنين بما بينهم وبين الكافرين من فرق هو أبعد مدى مما بين السماء والأرض ، فاطمأنت نفوسهم واستشعرت قلوبهم الرحمة والسكينة. وهى كلمة الله العليا التى جاهد المسلمون بها وجاهدوا لها ونشروها فى العالم عدلا شاملا وحقا كاملا وخلقا عاليا ونوراً مبيناً

ولقد زاد الله هؤلاء المؤمنين الذين ألزمهم كلمة التقوى تشريفا وتكريما فقال عنهم « وكانوا أحق بها وأهلها » أى هم كانوا أولى الناس بها لأنهم أقبلوا على رسول الله مصدقين مهتدين لارغبة فى دنيا ولا خوفا من مكروه

وزادهم استحقاقاً لها فجعلهم أهلها . وهذه أشرف منزلة ينالها إنسان . ولا شك أن هذه الشهادة من الله العلى العظيم أربح من كل ماوعدوا به من النصر بعد النصر والمغانم بعد المغانم . وما من أحد من هؤلاء إلا كان له فى رفع كلمة الله ونشرها فى العالمين لواء منشور وموقف مأثور ومقام مشهور . وحسبك أن تعلم أن من هؤلاء أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وعبد الله ابن

مسعود والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومن إلى هؤلاء من أقطاب المهاجرين وأبطال الأنصار الذين حملوا كلمة الله فرعوها حق رعايتها وأدوها حق أدائها « وكان الله بكل شيء عليما » فهو يعلم أهل كلمته وحماة رايته وحملة أمانته.

وكان مما اقتضاه علمه أنه اصطفى هذا الرعيل من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وناط به نصرة نبيه الأمين وإذاعة دينه فى العالمين.

وبعد أن استخلص الله العبرة واجتلى الحقيقة ذكر الله المؤمنين بأن رؤيا النبي حق لاشك فيه وأنها واقعة لاريب فيها وأنه سبحانه هو الذى يقدر الأمور بارادته ويؤقتها بحكمته فقال:

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا

وصدقت فلانا الحديث جعلته صدقا، وصدقته الأمر جعلته حقا فالصدق يكون فى القول ويكون فى العمل، وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق أى صدقه صدقا مقرونا بالحق أى بالتقدير المحكم الذى تقتضيه الحكمة البالغة، وكان الله قديراً على أن يفتح للمؤمنين الطريق إلى مكة وأن يدخلهم البيت الحرام فى عام الرؤيا فلا يعرضهم لما احتملوه من

جهد وإرهاق ، ولـكنه سبحانه طوى فى هـذا التأجيل ماعلمت من عظات بالغات وآيات بينـات ونعم سابغات جات عن الفـكر الطامح وسمت على الأمل البعيد .

وبهذا التأجيل امتحن الله سرائر المؤمنين ومحص إيمانهم « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» « أحسب الناس أن يتركو أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقدفتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الـكاذبين » .

وقد فسر الله الرؤيا كما رآها الرسول بقوله جل شأنه « لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاءالله آمنين . محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون» وهذا القول الـكريم هو الذى سمعه النبى الأمين من الملَك الذى هبط عليه وهتف به فى منامه . وفى قوله «إن شاء الله» ما يؤذن بأن الرؤيا متروكة لمشيئة الله يحققها إذا شاء ومتى شاء ، وقضى الله أن يدخلوا المسجد الحرام آمنين وأن يتموا نسكهم من الحلق أو التقصير .

والحلق استئصال الشعر كله . والتقصير أخذ بعضه ، والحلق هو الأصل فى النسك ويجزىء عنه التقصير ، والنساء لايحلقن بل يقصرن. والحلق للرجال أفضل .

ولما عاد أهل الحديبية قال رسول الله ﷺ : اللهم اغفر للمحلقين قالوا يارسول الله والمقصرين . فقال اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يارسول الله والمقصرين. فكررها ﷺ للمحلقين ثلاثاً . ثم قال : اللهم اغفر للمقصرين.

وفى هذه الرؤيا الصادقة بسط الله الأمان للمؤمنين مرتين : مرة حين الدخول ، ومرة بعد مناسك الحج ؛ فذلك مغزى قوله تبارك آياته « آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » . ثم أبان الله للمؤمنين أنه علم من حاضرهم وآتيهم مالم يعلموا ، وأنهم لو علموا لاختاروا الواقع ولآثروا طاعة الله ورسوله على الجدل فيما أوحى به . والرؤيا الصادقة من وسائل الوحى . وكان فيما اقتضته حكمة الله أن أجل الفتح وأن أثاب المؤمنين فتحاً قريباً .

وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر .

ثم انظر بعد ذلك إلى الخير الذى انطوى فيه كل خير ، وتمت به كل نعمة ، وتجلت فيه كل سعادة — هو البشرى الشاملة والنعمى الكاملة والغنم الأكبر والفوز العظيم . وذلك ماينه الله بقوله عز وجل:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

فالله سبحانه قد تفضل على الناس فأرسل رسوله بالهدى أى بالدليل الساطع ، والحجة الواضحة ، والنور المبين ، وهو القرآن الكريم ، وأرسله بدين الحق أى دين الاسلام الذى قام بالحق وحمل لواء الحق إلى الناس كافة ، وما جعله كذلك إلا ليظهره على الدين كله ، فالله سبحانه وصف الاسلام بالوصف الكامل وهو دين الحق ، ووعده الظهور

الكامل على الأديان جميعاً ، والقائد الأعظم لهذه الهداية العظمى هو محمد رسول الله .

وكما صدق الله رسوله الرؤيا بالحق فسيصدقه ذلك الوعد العظيم وهو أصدق القائلين ، وبذلك ينتظم الاسلام أرجاء العالمين ، ويطوى بنوره وقوته كل دين .

وقد بدأت هذه الآية الكبرى تلوح للوجود . فان بعض ذوى الفكر والرأى من بلاد المدينة الحديثة يدرسون الاسلام دراسة ثاقبة دقيقة تمزق حجب الوهم وتسفر عن نور الحقيقة وتنحسر أخيراً عن ترك دين واتباع دين .

وإذا كان بعض المُبطلين يحمل على الاسلام عن هوى وحقد ، وعن خوف وارتياع ، لأنه يكبت أهواءهم ، ويجتاح مآربهم ويقضى على ما ألفوه من تسخير العقول والاحلام ، والنفوس والاجسام بالتخييل ، والايهام ، فستكون هذه الحملات من أقوى أسباب عظمة الاسلام ، لأنها تحمل فى ثناياها عوامل هدمها وقواعد بنائه ، وقد يكون حسد الحاسد وبغى الحاقد من أقوى أجنحتك إلى السمو ، وأمضى أسلحتك فى النضال .

وأشد الباحثين عنتاً فى الرأى وانحرافاً عن القصد وإسرافاً فى الوهم من حاول أن يخلط بين الاسلام مسلمى هذا الأوان وأن يرسم صورته من حالهم ويرتهن مآله بمآلهم ، فان المسلمين يكادون أن يكونوا الآن أبعد ما يكونون

عن حقيقة الاسلام ، ولو أنهم عرفوا الله حق معرفته ، واتقوه حق تقاته ، وساروا كما رسم الاسلام للمؤمنين ، رحماء متوادين ، إخوة متعاونين ، يتجهون إلى غاية واحدة ، كما يتجهون إلى قبلة واحدة أسمى غاياتهم أن ينصروا الله وأن يرفعوا دينه وأن يعتصموا بما شرع لهم هذا الدين من حق مبين وخلق متين لحقق الله لهم ما وعد به عباده الصالحين من القوة والتمكين . ولكنهم تركوا الله فتركهم وأوهنوا دينه فأوهن قوتهم . « وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين »

إن الاسلام لا يعتمد فى بسط ظله وإذاعة نوره على حال هؤلاء المسلمين ولا على جهد دعاتهم ؛ وإنما يعتمد على أجنحته القوية التى تُعليه على كل أفق ، وتحمله بكل سبيل ، وتبشر به كل قبيل ، وهذه الأجنحة هى أسمى ما عرَف الانسان من مبادىء الكمال الروحى والنفسى والخلقى والاجتماعى ، ذلك الكمال الذى يطهر السرائر من أدران الغل والغش والضغينة والاحقاد ويوجه القلوب إلى غاية واحدة : هى بث الرحمة والسلام بين الأنام .

ولنبسط بنعمة الله وتوفيقه شيئاً من مبادىء الاسلام العالية التى ستكفل له انضواء الناس جميعاً إلى لوائه .

(١) الاسلام دين الفطرة — فهو لا يقاوم فطرة الانسان بل يصلحها ويطهرها ، ولا يكبت غرائزه بل يقومها ويهذبها ، قوام تشريعه

أنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويرفع الحرَج[1] وينفى المشقة[2] ويقدِّر الضرورة، ويأخذ العفو[3] ويأمر بالعرف، ويحرر الرقاب، ويجازى على الحسنة بعشرة أمثالها، ويأخذ السيئة بمثلها، ويعفو عن اللّمم[4] ولا يحمل على الضيم، بل يدفع العدوان بمثله « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به

---

(١) أى أن الله لا يريد بالناس ضيقاً ومن أجل ذلك يسر الأمور عند الشدة كقصر الصلاة للمسافر والتيمم عند فقد الماء أو عند التأذى به والفطر فى المرض والسفر. قال الله جل شأنه : « ماجعل عليكم فى الدين من حرج ». وقال تباركت آياته : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) أساس التشريع الاسلامى : لا تكليف بما لا يطاق. والله تعالى يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » ويقول سبحانه لليهود « قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » والإصر الذى يضعه الرسول هو الأعباء التى كانوا يحملونها من التشريع الذى أثقلهم فى عهدهم القديم فقد كان مفروضا على الخاطىء الذى يريد أن يتوب أن يقتل نفسه، والعضو الذى ارتكبت به الخطيئة يجب أن يقطع. والقتل يجب فيه القتل ولو خطأ، والنجاسة التى تلم بالثوب أو الجسم يجب قرض موضعها ولو بقطع الجلد وهذه هى الأغلال التى كانت عليهم (٣) يقول الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» أى خذ ما عفا أى ما تيسر من أخلاق الناس والعرف المعروف والجميل (٤) اللمم صغائر الذنوب.

« وجزاء سيئة سيئة مثلها »وإلى جانب ذلك رغب فى الصفح وأغرى بالصلح وأثنى على المغفرة « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » «فمن عفا وأصلح فأجره على الله »«وأن تعفوا أقرب للتقوى» «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)

وهو لا يُخمد القوة بل ينميها ولا يفض الجماعات بل يؤلفها ويهذبها (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)

وهو قد حدّ الحدود للاصلاح والارهاب ودرأها بالشبهات (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) فمن تصدق بالقصاص وعفا عنه سواء أكان ولى دم أو مجنيا عليه قبل منه العفو وكان كفارة له

(٢) الاسلام دين السلام والرحمة — وهما شعار كل مسلم فى كل وقت وكل مكان فلا تجد مسلماً يلقى مسلماً أو يفاديه أو يمر بجماعة أو يجلس اليها إلا كانت تحيتهم السلام عليكم ورحمة الله ، ومن أسمى

أدب الاسلام قول النبي عليه الصلاة والسلام« أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصَلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» وإفشاء السلام أن تذيعه لمن يعرفك ومن لا يعرفك ومن يصافيك ومن لايصافيك .

والسلام فى الاسلام رمز الأمان والايمان والله تعالى يقول « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً »

وهو تحية الله للمؤمنين فى الجنة « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما

والسلام يجاب بالسلام والرحمة : «وإذاحييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . ولما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ يقول له يامحمد، أقرىء خديجة السلام من ربها،وأبلغ الرسول التحية إلى من خصها الله بها قالت لله السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام ومن أجل ذلك كانت مهمة الاسلام الأولى بث السلام بين المؤمنين بما بث بينهم من الألفة والمودةوالتعاطف والايثار وبما شرع لهم من قانون السلام فى قوله تعالت حكمته « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . . . إلى آخر الآية . . ويقول سبحانه بعد تلك الآية « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

وأكثر آيات الكتاب الكريم خاصة على كظم الغيظ ودفع السيئة بالحسنة والاعراض عن الجاهلين حتى الذين شاقوا الله وحاربوه

وشجبوا النبي وآذوه أمر الله رسوله باحتمالهم ومصابرتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن وضرب الله الأمثال لرسوله باخوانه الأنبياء الذين احتملوا مااحتملوا من أذى في سبيل الله فكان ﷺ أفضل مقتد ومقتدى به

وان هذه السورة الكريمة لتنبئك بأسطع بيان أن الله قد عد المهادنة والموادعة واجتناب الحرب وإيثار السلام فتحاً مبيناً استحق قائده وجنده أعظم القربات وأشرف المثوبات وأرفع الدرجات في الدنيا والآخرة .

أما الجهاد بالسيف للقضاء على الوثنية وتطهير الأرض من عنفوان الطغيان وأدران الاثم والبهتان فقد كان بعد أن دعا الرسول إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، فلم يزدهؤلاء إلا غلواً في الكفر وإمعاناً في الضلال ، لأن شهواتهم رانت على قلوبهم وأخمدت نور عقولهم وأفسدت سبيل منطقهم ولا بد أن ينشر الله كلمته في الأرض ويذيع نوره في القلوب ويحمل الناس على الشريعة التي لا شريعة بعدها ولا مناص من جمع الناس عليها فكان الاذن بقتال المشركين بأية حال « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين » أما من عدا أهل الوثنية من أهل الكتاب فقد قال الله فيهم « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد

من الغى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ».

(٣) الاسلام دين المساواة — فهو الذى حطم الفوارق بين الطبقات وجعل المؤمنين إخوة متساوين لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »

وقد علمت مارسمه رسول الله ﷺ من السياسة الاسلامية يوم فتح مكة بقوله ، يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم خلق من تراب ، وفى حديث رسول الله ﷺ : إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد والذى نفس محمد بيده لو فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[1]

ويقول رسول الله ﷺ المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم

---

(١) وتمام الحديث أن امرأة مخزومية سرقت فقامت عليها البينة فوجب عليها الحد فأهم ذلك قريشا وهابوا أن يكلموا فى السارقة رسول الله وقالوا من يكلم رسول الله إلا حبه أسامة بن زيد فلما كلمه أسامة غضب صلى الله عليه وسلم حتى اشتد به الغضب وقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟! ثم خطب الناس فقال كلمته الشريفة التى قالها .

وكما حطم الاسلام فوارق الطبقات حطم القيود التى كُبلت بها المرأة فى أمم التاريخ القديم فقضت على عزتها وكرامتها وتفكيرها وتدبيرها وأداء رسالتها السامية فى الحياة .

وأول ماتجمل به الاسلام على المرأة أن رفع عنها سيادة الرجل المطلقة وفك عنها قيوده المرهقة وجعل الرباط الذى يجمعهما رباط ألفة ومودة ورحمة « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ثم قسم بينهما الحقوق والواجبات وجعل للرجل أمر التبعة والقيادة لما كلف به من سعى وما طبع عليه من قوة وجلادة « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وجعل دستور الحياة بينهما « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » « وإن يتفرقا يُغن الله كلا من سعته » وجعل لها المقام الأول فى نفس بنيها ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتى ؟ قال : أمك قال : ثم مَن ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من قال : أبوك . وجاء رجل إلى رسول الله فقال : إن لى أما أنا أحملها إذا سارت وأسهر عليها إذا نامت وأقف عليها جهدى وأعود عليها بكسبى فهل جزيتها ؟ قال : لا ولا بزفرة واحدة .

ولا شك أن من أنصع صفحات الاسلام تحرير الضعفاء من رق

الأقوياء وتحرير المقهورين من رق القاهرين وتحرير الرقاب من رق المستعبدين.

فان قلت : كيف هذا والاسلام قد أباح الرق ؟ :

قلت إذن فأرعنى سمعك فان الاسلام قد جنى عليه من لم يعلمه ومن لم يفهمه .

لقد كان العالم قبيل الاسلام يعانى أشد حلقات الرق . وكانت أسواق الرقيق قائمة نافقة فى كل بلد من بلاد العالمين حيث يعد الرقيق طبقة دون طبقات الدواب والأنعام

وكان العرب يقولون : احمل العبد على الفرس الجموح ، فان هلك هلك وإن عاش فلك . وكان القاتل يقتل العبد فلا يلحقه قصاص ولا تلزمه دية .

وكان الرومان أعنف الناس على العبيد وأقساهم عليهم وكانت جيوشهم تسير فتتبعها جيوش من النخاسين الذين يبتاعون « بالمزاد » من شاءوا من الأمم المقهورة رجالا ونساء وأطفالا .

ولم تبق أمة من الأمم السابقة على الاسلام إلا أسرفت فى الرق وأغرقت فى ظلم الرقيق حتى عدته شيئاً لاروح له ولا دم ولا إرادة .

إذن فالاسلام لم يشرع الرق كما يقول الآفكون المبطلون .

وبعدذلك فهل أباحه ؟ إن الاسلام لايضرب الرق على أمة مسلمة ولا على أمة موادعة وإنما أجاز للامام فى الأمة التى شرعت سيوفها فى

وجوه المسلمين ولم ترض بالاسلام أو الجزية أن يضرب عليها الرق وله أن يتركها فلا يسترق أحداً منها .

وما معنى الرق فى التشريع الاسلامى

الرق فى الاسلام كفالة وولاية ككفالة القاصر والولاية عليه وهذه الكفالة والولاية لاتخرج الرقيق عن معنى الاخاء الاسلامى لمن يسترقه . وفى سبيل ذلك يقول رسول الله ﷺ فى الموالى : هم إخوانكم جعل الله لكم الولاية عليهم لم ينحتوا من حجر ولم ينشروا من خشب فمن ابتُلى بواحد من هؤلاء فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم مالا يطيقون بل أعينوهم

ويقول رسول الله ﷺ لايقل أحدكم عبدى أو أمتى بل فتاى وفتاتى

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له : إن عندي صبية ترعى الغنم فعدا الذئب على شاة فأكلها فلطمتها فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه الشريف وقال : وما عسى أن تفعل الصبية بالذئب وما زال النبى يكررها حتي افتدى الرجل غضب الرسول بعتق جاريته

وقال ﷺ أيما رجل كانت عنده جارية فأعتقها وتزوجها فله أجران

وكان آخر كلمة قالها رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه : الصلاة وما ملكت أيمانكم

ومع ذلك التشريع السامى الذى لم يكن يخطر فى خيال المستضعفين فى الأمم السالفة . بل ولا فى مستعمرات الأمم الحديثة . أقول مع كل

ذلك فقد جعل الله تحرير رقاب هؤلاء أفضل القربات عندالله وجعل له سهما فى الزكاة وجعله كفارة لكثير من المحظورات : منها القتل خطأ . وفى حنث اليمين وفى الظهار وهو أسلوب من طلاق الجاهلية يقول فيه الرجل أنت على كظهر أمى فاذا قالها الرجل فقد وجبت عليه الكفارة وأرفع درجاتها عتق رقبة

إذن فالاسلام لم يشرع الرق ولم يبحه فى المستضعفين وإنما أجازه للامام فى المتمردين المحاربين والاسلام كما علمنا قد هذب الرق من ناحية وأعان على التحرير منه من نواح كثيرة . ومن طريق هذا الرق المهذب رأينا للجوارى هذا الشأن العظيم فى الدولة العباسية وفى الدول المتتابعة بالأندلس حتى كان منهم أمهات الخلفاء والوزراء وذوات الشأن العظيم فى السياسة والتدبير والعلوم والآداب

(٤) دين الفداء — الفداء كما علمت أرفع منزلة يصل إليها الانسان من السمو الروحى والخلقي والتجرد عن مآرب النفس وأهوائها وإفناء الذات فى الله وإرصاد المال لله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم »

ولقد ضرب الرسول الأكرم ﷺ أبلغ الأمثال فى الفداء، فما فكر فى نفسه فى محنة ألمت به ، ولا نظر إلى حياته عند انكشاف أصحابه عنه والحرب دائرة والرءوس طائرة ، بل كان قوله إذا اشتد عنف الناس

به وإيلامهم له وضغطهم عليه وعبثهم بدعوته « إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به السموات وصلح عليه أمر الدنيا أن ينزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » . وكثيراً ما كان ﷺ يوزع مغانم الحروب — وله خمسها — ويبيت جائعاً ويبيت أهله جياعاً ولعله يواصل الجوع يومين أو ثلاثة ويشد على بطنه حجراً لئلا تشغله وطأة الجوع . وقد يُؤْتَى فى ذلك الوقت بقدح من اللبن فيحتسى منه حسوة واحدة ثم يقول :اذهبوا به إلى أهل صُفة — وهم فقراء المسلمين المنقطعون الى الله ودينه .

وسار أصحاب الرسول على سنته فى الفداء فما كان لهم شىء من أنفسهم ولا أموالهم ولا أهليهم بل كان ذلك كله لله .

وقد بعث فيهم هذا الفداء — وهو أشرف منازل الايمان — قوى غير محدودة لاتقاس إليها قوة فى الأرض حتى كفل الله للمؤمن الواحد الغَلَب على عشرة ممن لا إيمان لهم، وفى ذلك يقول الله جل شأنه : (وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون)

وبهذه القوة الرائعة المروعة نازل هؤلاء المؤمنون أمم الوثنية جميعا فى وقت واحد وفى حملة واحدة فطووها طى الكتاب ثم بعثوها خلقا جديداً يؤمن بالله ويهتدى بهدى الله

(٦) دين العلم والتفكير — ولا تجد دينا أطلق الفكر فى ملكوت السموات والأرض وصرّفه فيما دق وجل من مظاهر الأشياء وخوافيها ودقائق الأمور وجلائلها كالاسلام . وهذه أعظم سمات القوة والأحكام فى الدين ، وقل أن تجد سورة من سور الكتاب الكريم لاتجد فيها دعوة إلى التفكر والتدبر والتبصر فى آيات الله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب . « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون». « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً » « وفى أنفسكم أفلا تبصرون . « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وكل آيات الكتاب الحكيم سيقت لمن يتفكرون ومن يتدبرون ومن يعقلون ومن يستبصرون .

ويقول الرسول الكريم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ويقول :« اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

وبهذا التوجيه القويم إلى التفكر والتبصر فى كل شىء حرر الاسلام الفكر الانسانى ودفع المسلمين دفعا إلى النظر فى أسرار الكون وإلى استبطان دقائق العلم وإلى الاحاطة بما ترك الأولون من حكمة وفلسفة وآداب ، وقد ألقوا على ذلك كله نوراً من قبس دينهم ومن وحى إلهامهم ومن عبقرية تفكيرهم ، ومن فيض إيمانهم فصقلوه وجددوا فيه وقدموه إلى العالم الحديث شرابا سائغا وقطافا قريباً .

ولن تستطيع أن تجد شبيها للنهضة الفكرية الاسلامية فى أمة من أمم الحضارة القديمة أو الحديثة فان المسلمين فى الدولة العباسية قطعوا مراحل العلم الثلاث — مرحلة الدرس ومرحلة المناقشة والمشاركة ومرحلة الابتكار والاختراع — فى أقل من ستين عاماً ، بينما يقطعها أكثر الأمم جهداً فى الحضارة وأبعدها مدى فى التفكير فى أكثر من مائتى عام .

فى هذه السنين الستين انتقل مفكروا المسلمين من الدرس الأول للعلوم الحديثة إلى ابتكار الجبر والمقابلة والكيمياء . ذلك فوق ماوضعوه فى أصول الفقة والنحو والصرف وفن النقد وعلم الكلام

ونحن نعلم أن مراجع التشريع الاسلامى أربعة : الكتاب والسنة والقياس والاجماع . وإذن فقد ترك الله للمسلمين وسيلتين من وسائل

التشريع ليحملهم على العلم والتفكير والاستنباط والتأويل ولو شاء سبحانه لأبان كل شيء وساق كل شيء ولكنه أنعم وتفضل وزادوتطول وأولى جماعة المسلمين تلك المنزلة الرفيعة وذلك الفضل العظيم

(٧) دين الصلة المباشرة بالله ، فليس بين الانسان وبين ربه حجاب وليس بينه وبين ربه وسيط، ولايدنيه من الله أو يبعده عن رحمته الا نيته وعمله. فمن أحسن النية وأحسن العمل فقد آب بالرضا، وتُوِّج بالمثوبة، ومن أساء النية وأساء العمل فقد باء بالغضب وغُشِيَ باللعنة « وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ويقول الله تبارك آياته لرسوله الكريم « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ويقول له كذلك « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

ويقول رسول الله ﷺ لابنته فاطمة وهى بضعة منه وأحب الناس اليه ، وسيدة نساء العالمين . بل هى التى أنبأها رسول الله أنه

يرضى لرضاها ويغضب لغضبها ، يقول لها أبوها ﷺ : يا فاطمة اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً .

ولم يكفل رسول الله الهداية والمغفرة لعمه أبى طالب وهو كافله ومربيه ووليه وحاميه والمدافع المنافح الذى وقف فى وجه قريش بأسرها ذياداً عنه واحتمالا دونه ، وعانى فى سبيله وفى سبيل تمكينه من نشر دعوته وإذاعة دينه مقاطعة قومه له ولأسرته فلا مودة ولا معاونة ولا بيع ولا شراء حتى نساؤهم اللاتى ينتمين إلى عشائر أخرى قاطعنهم وتركنهم وأجلتهم قريش إلى شعب منقطع فى الجبل يعيشون فيه بمعزل من كل مرافق الحياة .

فهذا العم لم يكفل له ابن أخيه الكريم وهو سيد العالمين نور الهداية ولاحسن المآب . ولله فى ذلك حكمة عالية تسمو على عقول الناس وهو العليم الحكيم

إذن فقوام الاسلام أن تنوى خيراً ، وأن تعمل خيراً وأن تُسلم وجهك إلى الله ، وأن تتجه إليه بدعواتك كما تتجه إليه بصلواتك ، وأن ليس لك على الله كفيل وليس دونه وكيل إلا أن تكون هناك شفاعة يأذن بها الله لرسوله فيمن يشاء من عباده « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » .

وإذا أجيز لك أن تتشفع برسول الله عند الله ، فقد أجيز

لك أن تتوسل به إلى الله وأعتقد أن من صدق الايمان بالله أن تؤمن بكرامة رسوله عليه فتتوسل به اليه .

ومن سوء حظ المسلمين أن يختلفوا على الرأى فيتفرقوا شيعاً يشجب بعضها بعضاً ويحفو بعضها بعضاً ، وقد ترى الرجل منهم أوثق ولاء بغير المسلم وأكثر رفقاً به ومواتاة له من هذا المسلم الذى يخالفه فى الرأى ، وقد يحمله هذا الخلاف على البطش بأخيه المسلم أو الوقيعة به أو الحيال بينه وبين رزقه وكل هذا يفعله الجاهلون المبطلون باسم الدين

وأشد من هذا وأنكى أن ينال هذا الخلاف من كرامة رسول الله ومنزلته الرفيعة عند الله فيفرق هؤلاء المفتونون بين حالى حياته وموته وما دروا أن روحه المطهر قدصار بعد موته أشف وأعم مما كان.

وإنا لنتوسل إلى الله برسوله الكريم أن يؤلف بين قلوب المسلمين وأن يطهر صدورهم وأن يرفعهم عن مزالق البغى والحسد وأن ينفحهم بروح من نبيه توقظهم من السبات وتجمعهم من الشتات وتجنبهم الأهواء وتبث فى نفوسهم روح الفداء إنه سميع الدعاء وهو القدير على ما يشاء .

(٨) دين الاجتماع — فالألفة والصفاء وهما أقوى عوامل الاجتماع المهذب هما أخص صفات المؤمنين ، والتعاون على تهذيب النفس وصلاح الناس هو قوام الجماعة الاسلامية ، ونظام الزكاة وما إليه من أنظمة معونة الأغنياء للفقراء لا مثال له فى الشرائع السماوية والوضعية وما

زال القرآن الكريم يأمر بالصدقات أمراً فى أكثر المواقف حتى جعلها حقاً معلوماً ونصيباً مقسوماً يتقدم به ذوو المال لمن لا مال لهم بغير مَنٍّ ولا أذى ولا مباهاة ولا مراآة فان وقع شيء من ذلك كانت الصدقات مأثماً من المآثم .

وهنالك مواطن أوجب الله فيها الاجتماع أو سنه وأعان عليه فالحج من أركان الاسلام والجمعة من فروضه وصلاة العيد من سننه المؤكدة وهى كما تعلم حالات تتجه فيها النفوس إلى الله فى طهارة الجسد وطهارة القلب وطهارة الضمير .

وقد تفضل الله فنفى عن الجماعة الاسلامية شوائب الاجتماع بما شدد النكير على الغيبة والنميمة والفتنة والوقيعة وتتبع عورات الناس ، والتجسس عليهم ، والاسراف فى سوء الظن بهم ، وبغى بعضهم على بعض ، وسخرية بعضهم من بعض ، وسب بعضهم بعضاً . ووصف رسول الله ﷺ المؤمن فقال لا يكون سباباً ولا فحاشاً ولا عياباً ولا طعاناً ولا لعاناً .

أما بعد فهذه أثارة من مبادىء الاسلام . وهى كما تراها أرفع ماعرف الناس من قواعد الحياة العالية للأفراد والجماعات ، والأمم والحكومات ، ولن ينقذ الانسانية التى تهوى إلى قرار سحيق إلا أن تعتصم بها مما يساورها من الموت وما يعيث فيها من الخراب

هـذه الشريعة هى إذن وادي الأمن وركن السلام فى هذا الجو العاصف القاصف الذى يوشك أن يطيح بالحضارة والعمارة والخلق والمبادىء والعقائد والأخلاق.

وسياجأ الناس إليها أقرب ممايظنون، لأن هذه الأحداث الراجفة ستزلزل العقائد كما تزلزل الأبنية لتقيم على أنقاضها بناء جديداً وطيداً يجد فيه الخائف أمنته ، والعانى راحته ، والبائس هناءته ، والعالم كله عصمته وسعادته

والمسلمون الآن وهم على ماهم عليه لايصلحون لحمل هذا الدين أو احتماله أو التبشير به لأنهم ضعاف واهنون تجاوز الضعف أجسادهم إلى أنفسهم وقلوبهم فهم بانتمائهم إلى الاسلام ونكولهم عن مبادئه عبء شديد عليه وهم من أجل ذلك عنوان غير صالح له . وإنهم إما أن يكونوا مسلمين حقاً أو ليهيئن الله لهـذا الدين من يحمله ويحمل طابعه ويكون شعاره فى حمل هذا الدين والتبشير به شعار الأنبياء : يدعون إليه ويجاهدون فى سبيله ابتغاء وجه الله لاطلباً للمال ، ولا طمعاً فى الجاه « ويا قوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله » . « ياقوم لا أسئلكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون » .

ولقد وعد الله باظهار هذا الدين على الأديان جميعاً فى مواطن من كتابه الكريم .

فى سورة التوبة : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وفى سورة الأنبياء : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون * إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

وفى سورة النور « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وفى سورة الفتح « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » .

وفى سورة الصف « يريدون ليطفئو نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ». صدق الله العظيم

أما بعد فقد توج الله تلك الفيوضات الربانية وأتم تلك التجليات الالهية وختم تلك البركات القدسية على محمد وأصحابه بهذا الوصف الخالد الذى لم يوصف فرد ولم توصف جماعة بمثله فيما كان وفيما يكون وذلك فى قوله تبارك اسمه وتقدس وصفه

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ
رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ
يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

لما قال الله تبارك من قائل « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » جال فى كل نفس هـذا السؤال : سؤال تفخيم وتعظيم لاسؤال جهل وإنكار : من هوذلك النبي الذىسيعم دينه آفاق الدنيا وأرجاءها . ويظهر على الدين كله ؟ فقال الله أصدق القائلين ذلك « محمد رسول الله » فى تقديم الحديث عنه وتأخير اسمه الشريف تنويه به وإكبار له وتشويق إليه . وهنا يشعر المسلمون بنفحة من العزة الشاملة حين يقلبون أبصارهم فى كتاب الله الكريم فيجدون أن الله سبحانه قد سمى كل نبي باسمه مجرداً عن وصف الرسالة إلا محمداً رسول الله فقد تفضل الله عليه فوصفه فى أكثر المواطن بوصف النبوة والرسالة واكتفى بهـا عن ذكر اسمه الكريم .فبينما تجد فى كتاب الله

« يا إبراهيم أعرض عن هذا » . « يا موسى أقبل ولا تخف » . « قالوا يالوط إنا رسل ربك » . « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم » . . . . . بينما تجد ذلك كله تستمع قول الله عن محمد رسول الله « إن الله وملائكته يصلون على النبي » وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول » « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » « يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » .. إلى كثير من هذا التكريم العظيم .. أفلا يسجد المسلم شكراً لله أن جعله مسلماً وأظله بلواء هذا الرسول الكريم الذى أجله الله واصطفاه على النبيين والمرسلين؟ وهؤلاء صحابته الذين أسبغ الله عليهم رحمته ورضوانه .. هؤلاء القادون الهادون البررة الأخيار أصغ إلى قول الله فيهم « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » فهم لا يرعون فى الكافر رحماً ولا قرابة ولا آصرة من الأواصر التى يستمسك بها الناس ويتآلفون عليها . العامل الأول والآخر والظاهر والباطن فى القرب والبعد والمحبة والعداوة عندهم هو الله وحده . فهم لا يغضبون إلا له ولا يرضون إلا له ولا يتواصلون إلا به ولا يتقاطعون إلا عليه . وقد رأينا المهاجرين الأولين فى الغزوات الاسلامية يقاتلون آباءهم وإخوتهم وأصهارهم وعشيرتهم فلا تأخذهم فيهم رحمة ، ولا تعطفهم عليهم عاطفة ، بل لقد كانوا على هؤلاء أشد وطأة وأهول وقعاً مما كانوا على غيرهم حتى يبلغوا من رضا الله مايريدون .

وكانوا فيما بينهم ألفاء متراحمين يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة . وقد رأينا الأنصار حين آخى الرسول بينهم وبين المهاجرين يشاطرون هؤلاء أموالهم حتى لو كان لدى أحدهم ثوبان آثر أخاه بخيرهما والفضل فى ذلك لله ولرسوله . فالله ألف بين قلوبهم بما أفاض عليهم من فيض الايمان وبما أزال عنهم من نخوة الجاهلية والعصبية العربية وبما أوضح فى كتابه الكريم من معنى الاخاء . ورسول الله هو القدوة العظمى فى الألفة الشاملة، والرحمة الكاملة، وهو الذى حبب إليهم الألفة بما ساقه لهم من حديث، وما ضربه لهم من مثل . وفى حديث الترمذى عن رسول الله ﷺ « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا » . ويقول ﷺ : « المؤمن أليف مألوف ».

ثم يتابع الله الثناء عليهم فيصفهم بقوله تباركت آيته « تراهم ركعاً سجداً » أى أن أكثر ماتراهم مصلين وقد نفهم من هذا الوصف معنى الجماعة أى تراهم جميعاً راكعين ساجدين ، وهى فى هذه الحالة تتصل اتصالا وثيقاً بقوله رحماء بينهم ، لأن صلاة الجماعة أوكد للألفة ، وأشمل للتراحم ، لما يعمهم جميعاً من نور الله ورضاه ، وهم بهذه الصلوات « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » أى مثوبته ورضاه وتلك هى الغاية العليا من الصلاة . تصلى لترضى الله ولتظفر بمثوبته عليك مع ما يشملك بنعمته فى دار الجزاء .

« سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » أى أنك ترى طابع الصلاة على وجوههم من أثر السجود وهو شىء من الشحوب مع وسامة واستنارة من أثر رضا الله .

ومن الناس من يحسب سيما المصلين هى تلك السُّفعة الجلدية التى تشبه الكى فى الجبين . ولو أرادها الله على هذه الصورة لقال سيماهم فى جباههم لا فى وجوههم . وكيف يريدها الله كذلك وهى موقوفة على من رقت جلودهم وصلبت مواضع سجودهم وتعرضوا من بعد للفحة الشمس ونفح الهواء وذلك شىء مادى لاصلة له بعمل القلب وقوة الايمان . ولقد كان فى أصحاب الرسول من يتّسمون بهذه السِّمة ومنهم من لا أثر لها فيهم ، وقد رأينا الواصفين الذين وصفوا رسول الله ﷺ فما رأينا منهم من احتفل بوصف هذه السمة من جسده الشريف كما وصفوا زين العابدين على بن الحسين فقالوا ذو الثّفنات لأن كثرة سجوده أحدثت فى وجهه مايشبه ثفنات البعير وهى الآثار الخشنة التى يحدثها بركه على الأرض وتقلبه على الصلاب ، ومن الناس من يستحدث هذه السمة بالعَلْب أى التأثير المصنوع ، فيكون هذا مظهراً من الرياء . وقد رأى رسول الله ﷺ رجلا أثر السجود والضغط فى أنفه فقال له : إن صورة وجهك أنفُك فلا تعلب وجهك ولا تَشِنْ صورتك . ورأى السائب بن يزيد رجلا فى وجهه مثل هذا الأثر فقال : لقد أفسد هذا وجهه ، أما والله ماهى السيما التى سمى الله تعالى . ولقد صليت على

وجهى منذ ثمانين سنة ما أثر السجود بين عينى . إذن فهذه السيما التى أرادها الله ليست أثراً ماديا يصاب به الجلد ولكنه خشوع ورقة ووضاءة وحياء ، وقد سجل الله هذا الوصف لأصحاب محمد ﷺ فى التوراة . ولكى يأخذ الوصف صورة خاصة لهم جعله مثلا أو فى حكم المثل . فقال تعالى « ذلك مثلهم فى التوراة » وللمثل صفة الطابع الخاص الذى لا يؤتى غيره حق الشركة فيه . أما مثلهم فى الانجيل فهو ماينه الله سبحانه بقوله « ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » إذن فالمؤمنون حول رسول الله كالشجر القائم حول أصل الدوحة العظيمة فما يلبث أن يغلظ ويستوى من حولها ويصير لها قوة تؤازرها ويتخذ منظراً يملأ عين الزارع حسناً وثمراً . هذا هو المثل الذى ساقه الله لأصحاب الرسول . أما قوله تعالى : ليغيظ بهم الكفار فترجع إلى حقيقة المثل لا إلى صورته التشبيهية الظاهرة . فحقيقة المثل رجل نشأ فرداً فما زال يدعو إلى الله حتى اجتمع حوله هذا الفريق المختار الذي نشأ على طبعه ، وعظم بروحه ، وقوى بقوته ، وأصبح هذا الفريق قوة مؤازرة له يملأ عين الرائين ليملأ واصدور الكافرين هما وغيظاً وحسرات

وقد نظرنا فيما بين أيدينا من التوراة والانجيل لنقف على مدى هذه الصفات فيهما ونحن نسوق هنا ما وقفنا عليه منهما

فى الاصحاح الرابع والخمسين «أشعيا» عن «بلد لم تخرج أنبياء» ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد، أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل قال الرب. أوسعى مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك، لاتمسكى، أطيلى أطنابك، وشددى أوتارك، لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمما ويعمر مدنا خربة .... إلى أن يقول: هأنذا أبنى بالأثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك . . . وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيرا حتى يقول هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندى

ففى هذا الاصحاح يساق الحديث عن بلد لم تخرج أنبياء. ولم تمخض عن نبى من قبل وهذه البلد التى تمخضت عن نبى لم يُسبق بغيره هى مكة وهو يوازن بينها وبين أورشليم فيسميها المستوحشة ويسمى أورشليم ذات البعل وأن مكة عذراء وأورشليم ولود ورغم ذلك سيكون أبناء تلك أكثر من أبناء هذه ويرثون أمماً ويعمرون مدناً خربة ثم يدعوهم تلاميذ الرب تحمل أسمى معانى التراحم والتآلف بين الجماعة.

وفى مزامير داود تجد فى المزمور الخامس والأربعين «ترنيمة محبة» يتحدث عن بلد تخرج نبياً فيقول فى وصف قومه «عوضاً عن آبائك يكون بنوك، ففيهم رؤساء فى كل الأرض، أذكر اسمك فى كل دور فدور من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد»

وفى انجيل مرقس (٣٠) وقال بماذا تشبه ملكوت الله أو بأى مثل تمثله ؟ مثل حبة خردل متى زرعت فى الأرض فهى أصغر جميع البذور التى على وجه الأرض ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول وتضع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلها

ويرمز الانجيل بملكوت الله للأمة الآتية أو المملكة الآتية أو الشريعة الآتية وقد وردت ملكوت فى رؤيا بختنصر « الاصحاح الثانى من دانيال » بمعنى الشريعة الآتية

ذلك ماوقفنا عليه من صفات أصحاب محمد ﷺ فى التوراة والانجيل وسنسوق بحول الله وقوته وتوفيقه ومشيئته ماوقفنا عليه من وصف النبي الكريم فى كتاب « السيرة النبوية » الذى سنصدره بعون الله بعد هذا الكتاب .

* * *

ونعود إلى الآية الكريمة فنقول إن الله اختتم القول فى وصف رسول الله ﷺ بقوله تبارك آيته « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » وفى تفسير هذا القول الكريم نعود إلى الآية كلها وإلى الوصف كله فننظر إلى قوله تبارك وتعالى محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار . . . . هل يريد الله بالذين معه أصحاب الشجرة الذين كانوا معه حين نزول السورة وحينئذ تكون

كلمة منهم فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) للبيان والتفسير لا للتبعيض أى وعد الله الذين آمنوا ... الذين هم أصحاب الرسول أو للتبعيض لاخراج ذلك المنافق الذى لم ينل شرف البيعة ولا شرف الرضا وإذا كان « الذين معه » هم أصحاب الرسول جميعاً فأولى بمن أن تكون على ظاهرها للتبعيض ويخرج من المغفرة والأجر العظيم بل من الوصف كله من لم يتمكن الايمان من قلوبهم من منافقى المدينة ومنافقى الأعراب أما جمهور الصحابة وجماعتهم فهم كما وصف الله سبحانه وتعالى خير قبيل لخير نبى وهم الذين نصروا الله فأعزهم ، وأخلصوا لله فرضى عنهم ، وباعوه أنفسهم فاشتراها بالجنة ونعم المآب .

نسأل الله أن يبث فينا كما بث فيهم روحا من قوته وأن يشملنا كما شملهم بفيض من رحمته وأن يوفقنا كما وفقهم إلى العمل بسنة الرسول وأن ينيلنا كما أنالهم شرف القبول إنه أكرم مسئول والله حسبنا ونعم الوكيل ؟

العبرة من سورة الفتح

بهذه السورة الكريمة يعتز كل مسلم ويسجد شكراً لله على أن جعله مسلماً وجعل نبيه محمداً لأنه اختار له أرفع الأديان ديناً ، وأشرف الأنبياء منزلة ، وهيأ له من وسائل الكمال الروحانى والنفسى والعقلى ما لو اتبعه واستمسك به لكان هو المثل الأعلى للانسان الكامل

ليس بين المسلم وبين حيازة السعادة المطلقة فى الدنيا والآخرة إلا أن يقرأ القرآن ، ويتدبره ، ويعمل به . وما فى ذلك عنت ، ولا حرج ، ولا إرهاق ، ولكن العنت أشدّ العنت ، والحرج أثقلَ الحرج ، والارهاق أفدح الارهاق أن يخالفه وفى مخالفته الشقاء والذل والوبال والانحلال

أى شىء فى القرآن يعنت الفطرة السليمة الطيبة ؟

لقد أمرنا القرآن أن نكون إخوانا أصفياء ألفاء ونهانا عن الغش والغل والحقد والحسد والبغى والعدوان ؟

فهل الود والصفاء والألفة والرحمة من العنت ، والحقد والحسد اللذان يأكلان الصدور لاعنت فيهما

لقد أمرنا القرآن أن نتوجه إلى الله بالصلاة فى الصباح وفى المساء وعند وهن العمل وبعد الانقطاع منه وقبل الذهاب إلى النوم وأمرنا قبل أن نرتفع إلى ذلك المرتقى الذى دونه كل مرتقى أن

نطهر ثيابنا وأبداننا فهل العنت فى ذلك وفصم صلة العبد بربه لاعنت فيه !

وقد أمرنا بأن يعود غنينا على فقيرنا بماله ومعونته ورحمته ووعد الله الغنى فى سبيل ذلك أن يُزَكى أمواله ويُرْبيها وأن يعطيه أجره فى الدنيا والآخرة بغير حساب .

فهل هـذا هو العنت والبخل والشح وما يتبع ذلك من ظلام القلب وهوان الحياة وضعف الايمان بالله لاعنت فيه .

وقد أمرنا بالتعاون على البر والتقوى وباصلاح ذات البين بين الأفراد والجماعات والأسر والأصدقاء فهل هذا من العنت والتنابذ والتقاطع والشقاق لاعنت فيه .

كل أوامر القرآن متعة روحية تكفل للانسان الرضا والاطمئنان حتى فى الحرمان والأحزان لأنه أوثق صلته بالله وعرف أن فى المحنة يبتلى بها المؤمن خيراً مطوياً وصلة دانية ومثوبة مضاعفة فى الدنيا والآخرة

ولنا فى هذه السورة العبرة البالغة والأسوة العظيمة .

فهنالك قوم وهبوا الله أنفسهم ، وأرصدوا له حياتهم . وبايعوه على ألا يفروا من الموت فى سبيله فماذا كان مآلهم ؟

لقد كان من مآلهم أن رضى الله عنهم ، وطهر قلوبهم ، وأثابهم النعمة بعد النعمة ، ومنحهم الغنيمة بعد الغنيمة ، ولم ينقصهم شيئاً من القصد الذى كانوا يقصدون . بل لقد أبلغهم هذا القصد ، وهم آمن قلباً ، وأعز جنباً ، وأعلى كلمة ، وأقوى جماعة ، مما كانوا يظنون ، وأخيراً أتم

الله لهم النعمة وضاعف لهم الجميل فوصفهم بما وصفهم به فى التوراة والأنجيل فأى فضل أعظم من ذلك الفضل وأى جزاء أكرم من ذلك الجزاء.

وهؤلاء الأعراب الذين استنفرهم النبى الأمين صلوات الله وسلامه عليه فلم ينفروا ودعاهم فلم يستجيبوا إشفاقا على أنفسهم أن يصيبهم الموت هل تخطاهم الموت ، والحياة والموت بيد الله ؟

لقد زعموا أنهم تخلفوا لأنهم لايجدون من يرعى أموالهم وأنعامهم إذا ساروا فهؤلاء قد أكذبهم الله بالحق الواضح والمنطق المبين فقال : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً » ولقد كانت لغيرهم ممن ذهبوا مع الرسول أموال وأنعام ونساء وأبناء فما فكروا فيها لحظة واحدة لأن الله ورسوله أحب إليهم من أبنائهم وأموالهم ولأنهم وضعوا ذلك كله فى كفالة الله فان شاء حفظها وإن شاء أذهبها وهو أحكم الحاكمين وهو نعم المولى ونعم النصير .

ومع ذلك فأى الفريقين عاد أوفر مالا ، وأعز نفراً ، وأشمل أمناً ، وأشد قوة ؟ أمن ساروا فى سبيل الله لايلوون على شىء من عَرَض الدنيا ولا يخافون شيئاً من بأس الناس ؟ أم من دعاهم داعى الله فنفروا منه وأعرضوا عنه وتعللوا على الله بالأعاليل ونكلوا عنه بالأباطيل.

سل هذه السورة الكريمة تجبك أن العاقبة فى الأولى والآخرة للمتقين ، فالذين خرجوا لله وإلى الله رعاهم فى أنفسهم وأبنائهم وأموالهم

وحفهم بما شاء من النعم والألطاف والذين آثروا أنفسهم عليه خاصمهم الله وفضحهم وعنفهم وحرمهم كثيراً من هذه الطيبات فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون .

وهنالك مسئلة المسائل ! هل الاسلام دين يسعى إلى غايته العليا بالسيف أم هو دين الحق والمنطق والأمن والسلام ؟

إن أعداء الاسلام لايزالون يبدئون ويعيدون فيمايصمون به الاسلام من العنف والبطش وإراقة الدماء وتمزيق الأشلاء ، وهم فيمايقولون بين خادع ومخدوع . ولو أنهم سكنوا إلى حكم العقل وحكم المنطق ، ونظروا إلى هذه السورة لأبصروا الاسلام دين الرحمة والسكينة والعفو والرفق والتماس أمثل السبل إلى الضمائر والقلوب .

لقد رأيت فى هذه السورة كيف من الله على المؤمنين بأن كف أيديهم عن عدوهم بعد أن أظفرهم الله به وأظهرهم عليه ، فهل الدين الذى يمتن على المؤمن القوى بأن الله كف يده عن الكافر الضعيف الذى لايملك لنفسه حولا ولا حيلة ـ هل هـذا الدين دين عنف وسيف أم هو دين رحمة وسلام .

إن الاسلام لم يحارب إلا أمماً غرقت فى حمأة الظلم والاثم والشرك والشهوات الموبقة والفتن المهلكة واستذلال الضعفاء واستعباد الفقراء وكانت هذه الأمم تتناحر لغير غاية ولغير عقيدة وعلى غير شريعة فهل يلام الاسلام إن حارب جيلا آثما من الناس لاصلاح الأجيال المقبلة إلى يوم الدين .

ثم ننتقل إلى مافى هـذه السورة الـكريمة من معجزات الغيب ومعجزات الكلام.

فهذه السورة كما حدثنا نزلت فى الطريق بين الحديبية والمدينة فى أخريات ذى القعدة عام ست من الهجرة، وكان المسلمون أبعد مايكونون عن التفكير فى الحرب والمغـانم لأن رسول ﷺ الله عقد مع قريش وحلفائها عهداً ألاّ تثار الحرب بينه وبينهم عشر سنوات، وقريش رأس الفتنة وأصل البلاء، فمن ذا الذى يشب الحرب أو يعين عليها إن كف هؤلاء عنها؟ ولـكن القرآن حدّث المسلمين عن فتح قريب ذى مغانم كثيرة فـكان فتح خيبر. وليس هنالك أكثر مغانم من اليهود، ولا أقرب مدى من شهرين ثم أكـد وعده للمؤمنين بأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مطمئنين. ثم وعدهم بالنصر فى موقعـة يعجز المسلمون عنها، ولـكن الله يحيط بها فينصرهم من حيث لايشعرون فـكان ذلك فتح هوازن. ثم تـكلم سبحانه عن قوم يقاتلهم المسلمون على الاسلام أو القتال فـكانت حروب الردة. ثم وعـدهم الله جلت قدرته بالنصر العزيز الذى يعز على القوة وعلى العدو وعلى التدبير فـكان النصر فى هذه المواطن كلها على غير مثال، ثم وصف الله سبحـانه سجال الحـديث بين رسول الله ﷺ وبين المخلفين من الأعراب ووصف خفيات قلوبهم ومآرب أنفسهم ودخائل صدورهم فـكان الأمر فى جملته وتفصيله كما وصف الله. ثم تـكلم الله تبارك حـكمته عن قوم آمنوا

بمكة وأخفوا إسلامهم ولم يعلم المسلمون ولا المشركون شيئاً عنهم وأنه سبحانه نظر إلى هؤلاء فلم يروعهم بحرب يطؤهم المسلمون فيها وهم لايعرفونهم فيذهب قوم من المؤمنين بالقتل ويبوء آخرون بالعار. ثم ختم الله سبحانه حلقات هذه المعجزات بأن كشف ماحاول اليهود والنصارى إخفاءه من وصف أصحاب رسول الله ﷺ فى التوراة والانجيل . وإذا كنا قد وفقنا فى الوصول إلى بعض هذا الوصف فيما بين أيدينا من التوراة والانجيل فقد صدق الله فيما يعلمه هو ويعلمه أحبار اليهود مما تناوله المحو والتحريف .

هذه سلسلة من المعجزات جاءت متوردة فى هذه السورة الكريمة ومَن أصدقُ من الله قيلا .

أما المعجزة الفنية فهى أجل وأعظم من أن يحدها مكان أو يوفيها بيان .

وقد كان كثير من الناس كما علمت يعلمون أنهم لم يفتحوا شيئاً ولم يفوزوا بشىء فهؤلاء ما كان أعظم إخذتهم وروعتهم حينما فاجأتهم الآية الأولى مؤكدة هذا الفتح بثلاثة ألوان من التأكيد فهناك الحرف « إنا » وهناك المصدر « فتحاً » وهناك الوصف « مبيناً »

ثم انظر إلى دقائق البيان فى قوله تبارك وتعالى ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر فأظهر اسمه الشريف فاعلا ثم أضمره للعطف فى الفعلين الآخرين « يتم » و « يهديك » ثم أظهر اسمه ثانية فى قوله تعالى

وينصرك الله نصراً عزيزاً لتطمئن قلوب المؤمنين إلى عزة النصر وقدرة الله فيه ومن أجل ذلك أتى الله به آية مستقلة عن الآية الأولى لأن الغفران والنعمة والهداية معان متقاربة ولا أثر فيها إلا لله وحده أما النصر فالناس يفهمون أنه ثمرة قوة وعدد ولذلك ذكره الله معززاً باظهار الاسم الشريف وبالتأكيد بالمصدر والوصف وباستقلاله بآية منفردة به .

هاتان آيتان من آيات هذه السورة أينما قلبت فيهما النظر وأدرت الرأى وجدت فنوناً من البلاغة سمت عن مرتقى التصور وفاتت مجال التفكير وكل هذه السورة بل كل آيات القرآن الكريم على هذا السنن نصاعة لفظ ، وجمال نظم ، ودقة وضع ، وسمو معنى ، وجلال غرض ، وسماحة ترتيل .

ونحن الآن من هذه السورة كخائض البحر المحيط لاينتهى من لجة إلا إلى لجة ولا يفضى من قارة إلا إلى قارة وفى دون ذلك يذهب الجهد ، ويضؤل الفكر ، وتشتت القوى ، وينفد الكلام .

نسأل الله أن ينفح العالم الاسلامى بنفحة من رحمته توقظه من سبات وتجمعه من شتات وتنفعه بما فى الكتاب من آيات وما فى الدهر من عظات وأن تهيىء له من قادته وساسته ودُعاته وهداته وزعمائه وعلمائه من يؤثرون الله على ما يحرصون عليه من مال وجاه ومجد وحياة فان كل شىء سواك يارب العالمين ضلالة أوهام ، وعلالة أحلام ، وخداع أقوام لأقوام وصلى الله على إمام الأنام ، وعلم الأعلام ، والشفيع المشفع يوم الزحام محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأطيب السلام .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٧	١٦	وأنزل جنوداً لم تروها وذلك جزاء الكافرين	وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين
٤٥	٥	على شيء	على أى شيء
٤٩	٣	أسد غطفان	أسد وغطفان
٥٨	٦	سبع رجال	سبعة رجال
٦٣	٤	عملوا	علموا
٦٤	١٨	بين الاسلام مسلمى	بين الاسلام ومسلمى
٦٨	١٨	خاصة	حاضة
٧٥	٨	صفة يايها النبي حرض المؤمنين	الصفة يايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين يايها النبي حرض المؤمنين

فهرس

تفسير سورة الفتح

من	إلى	
٧	٨	سورة الفتح : تنويه الرسول بها . تهنئة جبريل بها . فتح لم يجرد فيه سيف ولم يرق فيه دم
٩	٢٨	الفتوح المتصلة بسورة الفتح
٩	١٥	حديث الحديبية
		رؤيا الرسول — قريش الموتورة — الرحمة والعزة — آية الرضا حديث الصلح — بيعة الفداء — قريش تسأل الصلح — المسلمون يفتتنون — أم المؤمنين — فجر السلام
١٥	١٨	فتح خيبر
		الكيد والحسد — حبيب الله وحبيب رسوله — الكرم والصفح — حكمة الله العالية
١٩	٢٦	فتح مكة
		قريش تنقض العهد — قريش بين الخوف والندم — النبي يتأهب — بين رسول الله وأبي سفيان — دخول مكة — السياسة الاسلامية — الصفح والمغفرة
٢٦	٢٨	يوم حنين
		الاعجاب بالكثرة — المفاجأة والهجوم — جنود الله وسكينته
		التفسير
٢٩	٣١	فتح القلوب — قريش قبل الفتح وبعده — ذنوب الأنبياء — النصر العزيز

من	إلى	
٣٢	٣٦	نعم الله على المؤمنين ـ الرجال والنساء ـ وافدة النساء إلى رسول الله
٣٦	٣٧	بيعة الفداء ـ البيعة مع الله ـ الاعجاز فى التصوير ـ غاية الايمان
٣٨	٤٢	المخلفون من الأعراب ـ عذر فضحه الله ـ يخشون الناس ولا يخشون الله ـ ضلالة وجهالة ـ بين الأعراب ومنافقى المدينة ـ المنافقون والمؤمنون
٤٤	٤٧	رضا الله عن المبايعين ـ كيف كانت البيعة ـ فضل أهل الشجرة ـ الفتح القريب ـ عمر يقطع شجرة الرضوان ـ عزة الله وحكمته
٤٨	٥٣	آيات الرضا ـ المغانم ـ كيف كف الله أيدى اليهود والمشركين عن المؤمنين ـ مغانم حنين ـ كيف قسمت ـ بين رسول الله والأنصار ـ كيف بات رسول الله جائعا وبات أهله جياعا يوم تقسيم المغانم
٥٣	٥٤	سنة الله أن ينصر من ينصرونه
٥٥	٦١	دين الاسلام دين السلام ـ الله جلت حكمته يطلع المؤمنين على حكمة كفهم عن دخول مكة ـ المؤمنون المستترون بمكة ـ بين السكينة والحمية كلمة التقوى
٦١		صدق الرؤيا ـ حكمة الله ـ امتحان السرائر
٦٣	٧٣	**الاسلام يظل العالم ويظهر على الاديان جميعا**
		فجر الاسلام ينبثق أخيرا كما انبثق أولا ـ الاسلام دين المستقبل أجنحة الاسلام مبادئه السامية : الاسلام دين الفطرة ـ الاسلام دين السلام ـ الاسلام دين المساواة ـ تحرير الضعفاء ـ تحرير المرأة تحرير الارقاء ـ الاسلام دين الفداء ـ الاسلام دين العلم والتفكير الاسلام دين الصلة المباشرة بالله ـ الاسلام دين الاجتماع
٨٥	٩١	وصف الرسول ـ وصف المؤمنين فى التوراة ـ وصف المؤمنين فى الانجيل ـ بحث فيما ورد فى التوراة والانجيل من وصف الرسول وصحابته
٩٢	٩٨	**العبرة من سورة الفتح**